baseera.net

المنهج القويم

على الصراط المستقيم

أم الحواري آل ثاني

المنهج القويم

على الصراط المستقيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

نشر وتوزيع:
مكتبة خزائن الآثار
سلطنة عمان - بركاء
نقال: ٠٠٩٦٨٩٨١٧٧٧٨٩ - ٠٠٩٦٨٩٥٥١٠٠٢٥

الراعي الإعلامي:
موقع بصيرة الإلكتروني
موسوعة إلكترونية في العلوم الإسلامية
لسماحة الشيخ العلامة أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان
للتواصل: info@baseera.net - www.baseera.net

المنهج القويم

على الصراط المستقيم

أم الحواري آل ثاني

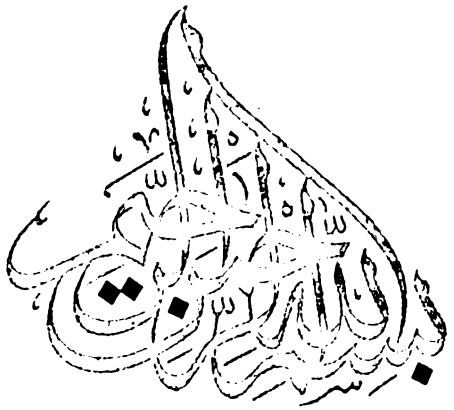

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العظيم، الهادي عباده إلى الصراط المستقيم، بإرسال رسوله المصطفى الكريم، اللهم صل عليه وسلّم، وعلى آله وصحبه أزكى الصلاة والتسليم.

أما بعد:

فإن العقيدة هي أهم علم ينبغي للمكلف أن يتعلمه حتى يعبد الله على علم وبصيرة، لا على هوى النفس ورغباتها.

ولكي يفهم هذه العقيدة الصحيحة الصافية عليه الرجوع إلى أصلها: كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ فبهاذين المنبعين يتبين طريق الحق التي ينال بها رضى الله ﷻ والفوز بجناته، وبهذا تتحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

ومما لا شـــك فيه أن أهل الحق والاســـتقامة استقوا أمر دينهم من هذين المنهلين العذبين؛ فلذلك نجدهم ينزهون الله تعالى بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

ومما حز في نفسي أن كثيرا من العامة والناشئة لا يعرفون عن مذهب أهل الحق والاستقامة (المذهب الإباضي) ولا عن تأريخه شيئا، فلا يعرفون من مؤسســـه، وكيف نشأ، ومن هم رموزه، وما مبادئه، وأين انتشـــر، مما جعلني أهتم بهذا الأمر بجمع وإعداد بعض المســـائل التي تتعلق بنشأة هذا المذهب العريق ومعتقداته، بصورة سهلة وواضحة بأسلوب حواري عن طريق السؤال والجواب، حتى يستطيع فهمه كل ناشئ صغير أو عامي كبيـــر، وكان اعتمادي علـــى أهم المصـــادر والمراجع الإباضية مثل: الحق الدامغ، ومشـــارق أنـــوار العقول، والبعد الحضاري، والإباضية في موكب التاريخ.

فتارة أنقل المعلومة من مصدرهـــا بلفظها، وتارة أتصرف فيها.

وفي الختام لا يســـعني إلا أن أشـــكر كل من أمد لي يد العون في هذا العمل المتواضع، وأخص من بينهم أبا الحواري الذي كان لي موجهـــا ومتابعا لهذا العمل، والشـــيخ الفاضل

عبدالله بن أحمد بن سعيد السليمي الباحث بمكتب الإفتاء الذي راجع هذا الكتاب مما أفادني بملاحظاته القيمة، فجزاهم الله خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

هذا والله من وراء القصد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أم الحواري آل ثاني
الجبل الأخضر

في يوم من الأيام اجتمعت أسرة أبي زيد يتجاذبون الأحاديث الشيقة في وقت السمر

قال أبو زيد: الآن يا أبنائي مقبل علينا شهر عظيم ومبارك، فعلينا أن نستغل هذه الأيام في الإكثار من الطاعات، ونخصص بعض الأوقات في تلاوة القرآن الكريم ومدارسة العقيدة والفقه والسيرة، سائلين الله التوفيق والثواب.

أم زيد: إنه عمل مبارك بإذن الله.

زيد: يا أبي نحن في الماضي تعلمنا مقتطفات عن المذهب الإباضي، وأريد أن أتعرف على هذا المذهب الأصيل.

هند: ما رأيكم يا أبي ويا أمي ويا أخي أن نخصص لنا وقتا في كل ليلة من ليالي رمضان يحدثنا أبي فيها عن هذا المذهب العريق؛ لأنه موضوع مهم، فأنا لا أعرف الكثير عن هذا المذهب.

أم زيد: متى يكون هذا الوقت يا أبا زيد حتى نستعد؟

أبو زيد: سيكون بعد صلاة التراويح إن شاء الله.

في الليلة الأولى
من ليالي شهر رمضان

أم زيد: تعالي يا هند واتركي من يديك غسل الأواني، فلقد عاد أبوك وأخوك من المسجد.

الأم وهند: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زيد وأبوه: وعليكم السلام ورحمة الله بركاته.

أبو زيد: نحن بانتظاركما لكي نبـدأ حديثنا عن المذهب الإباضي.

هند: آه يا أبي كم أنا متشوقة إلى هذه الجلسة.

أبو زيد: المذهب الإباضي له تاريخـه الضارب، وكانت نشـأة هذا المذهب تعود إلى العامل الديني والسياسـي التي تمثلت في مبايعة عبد الله بن وهب من طرف الصحابة والتابعين الذين أنكروا التحكيم على علي بن أبي طالب كرم الله وجه.

زيد: عذرا يا أبي ومن هو عبد الله بن وهب؟

أبو زيد: هــو الصحابي الجليل عبدالله بن وهب الراســبي، أدرك رسول الله ﷺ، وعرف بالعلم والفصاحة والشجاعة، وشهد فتوحات العراق، وكان مع علي في حروبه، وكان ممن خرج بعد قبول علي بن أبي طالب التحكيم إلى النهروان، وبايعه أصحابه على الإمامة في ١٠ شوال ٣٧ هجري، وقد قتل في معركة النهروان.

هند: وماذا تقصد بالتحكيم يا أبي؟

أبو زيد: هي حيلة اتخذها معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص حينما أحسا بضعف وخافا من الهزيمة من جيش الإمام علي بن أبــي طالب ـ كــرم الله وجهه ـ فلجآ إلــى التحكيم، والمقصود بالتحكيم يا بنيتي رفع المصاحف على الرماح حتى يتخلص هؤلاء من أن تقع الهزيمة عليهم طالبين حكم القرآن فوافقهم علي ـ كرم الله وجهه ـ وقبل هذا الرأي فدب الخلاف في جيش علي واختلط عليهم الحق بالباطل وخرج عدد كبير من جيشه ومن بينهم عبدالله بن وهب الراسبي وأتباعه.

زيد: وما المشكلة في التحكيم يا أبي؟

أبو زيد: إن التحكيم خدعة سياسية يراد بها تفريق جيش أمير المؤمنين، ثانيا إن الإمام عليا هو الخليفة الشرعي؛ ولذلك لا يسوغ له التنازل عن هذا الحق الشرعي.

أم زيد: يا لها مـــن كارثة ألمت بالإســـلام والمســـلمين وبالتاريخ الإسلامي!

زيد: إذن متى ظهر المذهب الإباضي يا أبي؟

أبو زيد: ظهر المذهب الإباضي في القرن الأول للهجرة؛ فهو من أقدم المذاهب الإســـلامية إذ إن إمامه المنسوب إليه عبد الله بن إبـــاض التميمي من التابعيـــن الأولين المعاصرين لعبد الملك بن مروان.

هند: تقول يا أبي إن المذهب الإباضي من أقدم المذاهب وأقربها إلى عهد رسول الله ﷺ بين لي ذلك.

أبو زيد: يتبين ذلك من خلال تتبـــع تأريخ وفيات أعلام الفقهاء الذين نسبت إليهم مذاهب الفقه الإسلامية الشهيرة:

فالإمام جابر بن زيد	توفي سنة ٩٣هـ.
الإمام زيد بن علي	توفي سنة ١٢٢هـ.
الإمام جعفر الصادق	توفي سنة ١٤٨هـ.
الإمام أبو حنيفة	توفي سنة ١٥٠هـ.
الإمام مالك بن أنس	توفي سنة ١٧٩هـ.
الإمام الشافعي	توفي سنة ٢٠٤هـ.
الإمام أحمد بن حنبل	توفي سنة ٢٤١هـ.

وهذا دليل كاف يا بنتي بأن المذهب الإباضي هو أقدم المذاهب.

أم زيد: سمعت من البعض يقولون بأن المذهب الإباضي من الخوارج.

أبو زيد: هذا ما سنتحدث عنه غدا ـ إن شاء الله تعالى ـ لأن الحديث سوف يطول فيه؛ والآن نكتفي بهذا القدر ولنذهب للعشاء حتى يتمكن الأولاد من النوم باكرا والقيام للسحور، لأن في السحور خيرا كثيرا كما قال رسول الله ﷺ: (تسحروا؛ فإن في السحور بركة).

الجميع: صدق رسول الله ﷺ.

زيد وهند: شكرا لكما وجزيتما خيرا.

* * *

الليلة الثانية
وفي اليوم التالي اجتمعت الأسرة حتى يكملوا حديثهم السابق

هند: كم أنا متحمسة إلى معرفة المزيد عن المذهب الإباضي يا أبي.

أبو زيد: هناك المزيد والمزيد يا بنيتي عن هذا المذهب الأصيل، فأمك بالأمس سألت هل الإباضية من الخوارج؟ وهو سؤال مهم جدا، فقد اشتبه على كثير من المثقفين والكتاب والمؤرخين الذين يهتمون بتاريخ المذاهب الإسلامية ونشأتها، والجواب على ذلك: الإباضية ليسوا من الخوارج وليس لهم صلة بالخوارج يا بنيتي، ولكن الشيء الوحيد الذي يربطهم بالخوارج هو رفضهم المشترك للتحكيم، والذين ألصقوا بهم تهمة الخوارج هم الأمويون لكي ينفروا الناس عن مذهبهم؛ لأنهم رأوا فيهم الحق الذي خافوا منه.

زيد: هل هناك أدلة تدل على أن الإباضية ليسوا من الخوارج؟

أبو زيـــد: نعم يا بنـــي هناك أدلـــة كثيرة تـــدل على أن الإباضية ليسوا من الخوارج: ومن بين هذه الأدلة أولا: كان الإمام عبد الله بن إباض ضد الأفكار التي ينادي بها نافع بن الأزرق، وكان يعلـــن ببطلانها بكل صراحـــة ويحذر الناس منها، ثانيا كان المحدث الشهير الربيع بن حبيب الفراهيدي الإباضي يبرأ من الخوارج، ثالثا أن الإباضية لم يسلوا السيف على أحد من أهل التوحيد قط، ولم تقـــع منهم حرب ضد أحد من المســـلمين، وإنما كانت مواقفهم دفاعية. رابعا أن الإباضية اتجهوا إلى خدمة الإسلام علما وعملا منذ ابتدأت الفتنة؛ فقد كان أول مـــن دوّن الحديث الإمام جابر بن زيد، ودوّن أقوال الصحابة في ديوانه، وإذا أردتم معرفة المزيد عن هذا الموضوع، فعليكم الرجوع إلى تاريخ هؤلاء حتى يتبين الحق من الباطل.

هند: هناك ســـؤال دائما يتـــردد إلى ذهني، لماذا ســـمي الإباضية بهذا الاسم؟

أبو زيد: سمي الإباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبد الله بن إباض؛ لأنه كان الرجل البارز فـــي محاورته لبني أمية، فقد كان الحجة الدامغة التي لا يســـتطيع أحـــد مجاراته، وكان

مجاهدا في إعلاء كلمة الحق التي أراد أن يطمسها الظالمون بجورهم وطغيانهم، وله مواقف بطولية جريئة مع عبد الملك بن مروان.

والمذهب الإباضي هو أقدم من اسمه، والذين أطلقوا عليه هذا الاسم هم المخالفون للمذهب الإباضي كما قال في ذلك الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فما الإباضيون إلا علما ... لخلفاء الحق منا فاعلما
إن المخالفين قد سمونا ... بذاك غير أننا رضينا
وأصله أن فتى إباض ... كان محاميا لنا وماضي
مدافعا أعداءنا بالحجة ... وحاميا إخواننا بالشوكة

أم زيد: إذن بماذا كان يتسمى الإباضية قبل أن يطلق عليهم هذا الاسم؟ ومتى أطلق عليهم هذا الاسم؟

أبو زيد: كانوا يسمون أنفسهم أهل الدعوة، وأطلق عليهم هذا الاسم بعد موت جابر بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هند: متى ولد عبد الله بن إباض؟ ومتى توفي؟

أبو زيد: ولد عبد الله بن إباض في زمن معاوية ما بين سنة ٤٠ إلى سنة ٦٠، وتوفي في آخر حياة عبد الملك بن

مروان، ولا تذكر المصادر في أي سنة كانت وفاته، ولكن من المؤكد قبل ١٠٠هـ.

زيد: أما أنا يا أبي فقد كنت أظن أن عبدالله ابن إباض هو مؤسس المذهب الإباضي.

أبو زيد: لا يا بني، فمؤسس المذهب الإباضي هو جابر بن زيد، وهذا لا يعني التقليل من شأن عبدالله ابن إباض أو قيمته العلمية أو صلاحه أو ورعه، فقد كان الساعد الأيمن لجابر بن زيد، ولسانه الناطق بمعتقدات الإباضية؛ لأن الناس كانوا يظنون بأن الإباضية من الخوارج الذين سخطوا منهم مثل الأزارقة، وكان لا بد لهؤلاء الرجال أن يفصحوا عن رأيهم حتى لا توجه إليهم هذه الاتهامات التي وصفوا بها، وكان هو من يواجه بني أمية في المناظرة والمجادلة، وله مناقشات ورسائل إلى عبد الملك بن مروان، وكان من شدة جرأته يخاطبه باسمه مجردا من أي لقب سواء كان بأمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، حتى أنه وصف بني أمية بالظلم والفساد ومخالفة المبادئ الإسلامية، وبرغم هذا لم يتحذ أحد منهم في حقه أي موقف سلبي.

أم زيد: كما أنه يا ابني، كان تلميذا لجابر بن زيد، وهو من أكبر أعلام الإباضية وأئمتهم الذين حملوا لواء الدعوة

الإسلامية لنشر المبادئ التي أتى بها الرسول ﷺ، وكان اهتمامه بأعمال الدعوة والتنظيمات في ذلك الوقت.

هند: إذن فهو ـ كما عرفنا ـ اختير للدفاع عن المذهب الإباضي لما يختص به من مميزات تؤهله للقيام بهذه المهمة، ولكن هل هناك شيء آخر جعل هؤلاء الطغاة لا يمسونه بأذى؟

أبو زيد: نعم يا هند، فقد كان هذا العَلَم البارز ينتمي إلى قبيلة تميم، وهي إحدى أهم قبائل البصرة؛ ولذلك من الصعب لهؤلاء الطغاة أن يتعرضوا له بأذى خوفا من قبيلته، وقد قال في ذلك الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قد كان في المنعة من عشيرته ... ولا يطاق بأسه لسطوته
فأظهر الحق على رغم العدى ... والكل من أعدائه قد شهدا
قد كان في أيام عبد الملك ... مع شدة الأمر وضيق المسلك
ناقشه وبين الصوابا ... ولم يكن لبأسه قد هابا
وكان لا يدعوه إلا باسمه ... تعززا بحقه وعلمه

أم زيد: جزاه الله خيرا على جهاده وجمعنا وإياه في مستقر جناته.

الجميع: آمين.

أبو زيد: نكتفي بهذا اليوم وغدا سنذهب ـ إن شاء الله ـ إلى زيارة جدكم وجدتكم في مثل هذا الوقت.

هند: وماذا عن حلقتنا هذه.

أبو زيد: سنستغل فرصة وجودنا هناك بالحديث عن مؤسس المذهب الإباضي.

أم زيد: هذا أمر طيب فجدكم لديه اطلاع واسع عن جابر بن زيد وسيرته.

هند وزيد: تصبحون على خير.

زيد وأبو زيد: وأنتم من أهل الخير.

* * *

الليلة الثالثة
بيت الجد وبعد العشاء

الجد: الحمد لله على نعمه التي لا تقدر ولا تحصى.

زيد: الحمد لله حـق حمده، فنحن يا جـدي يعجبنا طبخ جدتنا لأن فيه رائحة الماضي العريق.

أبو زيـد: نحن مقصـرون في حقكم، ولكـن ما هي إلا مشاغل الحياة.

الجدة: لا تقل ذلك يا بني، فأنتم دائما تتعهدونا بزيارتكم وخدمتكم جزاكم الله خيرا.

هند: نحن يا جدي اعتدنا في مثل هذا الوقت التحدث عن المذهـب الإباضـي، ونتمنـى أن تخبرنا عن مؤسـس هذا المذهب.

الجد: نعم الرأي يا أبنائي، فهذا المذهب له تاريخه الحافل بالتضحيات مـن أجل إعلاء كلمة الحق، فقـد عرف أصحابه

بأهل الحق والاستقامة، وبنوا عقيدتهم من القرآن والسنة والشريعة الحقة، ماضين به على خطى رسول الله ﷺ، ومؤسس هذا المذهب هو ذلك الرجل الشهير الإمام جابر بن زيد الأزدي العُماني البصري التابعي الجليل ـ رحمه الله تعالى، ورضي عنه ـ.

زيد: إذن لماذا لم يظهر كباقي مؤسسي المذاهب الأخرى؟

الجد: هناك أسباب سياسية جعلته لم يظهر بشكل بارز كمؤسس لهذا المذهب حتى لا يبطش به الأمويون خوفا من أن يقضوا على الدعوة وهي في مرحلتها الأولى، فقد كان له دور تنظيمي كبير في هذه المرحلة التي تعرف في التاريخ الإباضي بمرحلة الكتمان.

كما أن الأمويين كانوا لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر بن زيد حتى لا يجذبون الأنظار إليهم.

هند: أنت ذكرت يا جدي أنه عُماني الأصل، فلماذا ينسب إلى البصرة؟

الجد: لأنه قضى جل عمره في البصرة من أجل طلب العلم، واستقر بها إلى أن مات فنسب إليها.

زيد: متى ولد؟ وفي أي مكان من سلطنة عُمان؟ ومتى توفي؟

الجد: ولد سنة إحدى وعشرين للهجرة، زمن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، في بلدة فرق، التابعة لولاية نزوى، وتوفي على أرجح الأقوال سنة ٩٣ للهجرة في البصرة.

هند: وهل لديه كناية يا جدي؟

الجد: نعم يا بنيتي، فقد كان يكنى بأبي الشعثاء على اسم أكبر أولاده وهي ابنته الشعثاء، وما يزال قبرها معروفا في مدينة فرق إلى الآن.

زيد: إذن هو كان المرجع للمذهب الإباضي.

الجد: نعم، فهو الذي أرسى قواعد الفقه وأصوله، وكان متبحرا بعمق في الفقه، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: (اسألوا جابر بن زيد؛ فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه)، وهذه الشهادة تثبت غزارة علم وفقه هذا الرجل، كما أنه قال: (جابر بن زيد أعلم الناس).

أبو زيد: وقد أصبح جابر بن زيد أعظم فقيه في البصرة، وكان أعلم أهل زمانه، وعندما ذهب أهل العراق يسألون

عبد الله بن عباس قال: (عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وفيهم جابر بن زيـــد)، وكان جابر بن زيـــد أحفظهم لحديث رسول الله ﷺ وأتقاهم لله.

زيد: وهل أخذ علمه من البصرة فقط؟

الجد: لا، فلم يكتفِ جابر بن زيد بأخذ العلم بمن التقى بهم في البصرة، بل كان يتردد إلى الحجاز، وأمضى بقية حياته يتردد بين البصرة والمدينة متحملا مشـــقة السفر حتى يلتقي بأصحاب رســـول الله ﷺ ويســـتوعب ما عندهم وحتى يلتقي بأكبر فقهاء المسلمين حينذاك.

أبو زيد: فبعد أن غادر وطنه عُمان وهو في ريعان شـــبابه متجها إلى البصرة من أجل طلب العلم، استطاع أن يحوي علم سبعين رجلا من صحابة رسول الله ﷺ والذي ساعده على ذلك هو اجتهاده وفطنته وصبره، حتـــى كان ما تمناه بتوفيق الله، ثم بإرادته وعزيمته القوية.

زيد: بعد ما سمعت عن هذا الرجل، وهذه الإرادة والعزيمة القويـــة لهذا الرجل من أجـــل طلب العلم، أتمنـــى أن تخبرنا يا جدي من هم أهم أساتذته الذين أخذ عنهم العلم.

الجد: أبرز أساتذته يا حفيدي العزيز من صحابة رسول الله ﷺ والتابعين، ويروى أنه حوى جميع ما عندهم إلا حبر الأمة، ومما قاله عن نفسه في هذا المعنى تحدثا بنعمة الله: «أدركت سبعين رجلا من أهل بدر، فحويت ما عندهم إلا البحر»، ويعني بذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابن عم رسول الله ﷺ وكان أكثر ملازمة لهذا الصحابي الجليل من غيره، وكان من أنجب تلامذته حتى قال عنه: «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عما في كتاب الله» كما أنه أخذ علمه عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فكان يسألها عن سنة رسول الله ﷺ، ويناقشها في كثير من المسائل التي تتعلق برسول الله ﷺ الخاصة حتى يدلل في فتواه بسيرة الرسول الكريم ﷺ، حتى قالت عنه: «لقد سألني في مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط».

أبو زيد: ما شاء الله، بهذا يتبين لنا فطنة هذا الرجل وذكاؤه وصبره على العلم والتعلم حتى استطاع أن يحوي علم سبعين صحابيا.

الجد: وأيضا أخذ علمه عن الصحابي الجليل خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك، الذي شهد لجابر بن زيد بعدما

بلغه خبر وفاته قال: «اليوم مات أعلم من على وجه الأرض»، وتوفي هذا الصحابي الجليل في نفس السنة والأسبوع الذي توفي فيه جابر بن زيد، وأخذ علمه أيضا عن جابر بن عبد الله الأنصاري، الذي شهد لجابر بن زيد مثل شهادة عبد الله بن عباس عندما يسأله أهل البصرة يجيبهم، ثم يقول: «كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء؟» ومنهم أيضا عبد الله بن عمر ﷺ والكثير الكثير ممن أخذ عنهم جابر بن زيد.

أبو زيد: وبما أنه شهد لجابر بن زيد كثير من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فهو بهذا يعد من كبار العلماء في ذلك الوقت، ويكفينا شهادة الصحابة الذين ذكرناهم، والذين تربوا في بيت النبوة، وهم من أحظى الصحابة وأعلمهم بمعاني القرآن الكريم والسنة.

الجد: وجابر بن زيد كان يقول: «من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، ولقد من الله علينا بعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام، وهم الراسخون، فعلى آثارهم اقتفينا، وبقولهم اقتدينا، وعلى سيرتهم اعتدنا، وعلى منهاجهم سلكنا، فلا قيمة لمذهب ليس له سنده المتين الذي يربطه برسولنا الكريم ﷺ، ولا قيمة لمدرسة ليس

لها مرجع في العلم»، وقد روى عنه أكثـر المذاهب الأخرى، ووثقه جميعهم.

الجدة: لقد أخذتمونا إلى الماضي العريق الذي كان أهله يبذلون النفس والنفيس من أجل طلب العلم، ويتحملون مشقة السفر تحت الشمس المحرقة أو البرد القارص، ويقضون الأيام والأشـهر والسـنوات في طريقهم حتى يصلوا إلى مقر العلم والتعلم، وهذا جابر بن زيد يضرب لنا أروع الأمثلة في ذلك.

زيد: أرجو المعذرة يا جدي، فهل لي بسؤال أخير.

الجد: تفضل يا بني.

زيد: ما الذي جعل جابر بن زيد يتجـه إلى البصرة دون غيرها؟

الجد: اتجه إلى البصرة لأن البصرة كانت ذلك الزمان من أهم المراكز الفكرية في العالم الإسـلامي، وهي منبع العلم والمعرفة بسبب نزول عدد من الصحابة في هذه المدينة التي اشتهرت في جميع أقطار الجزيرة العربية، وكانت أيضا مدينة مألوفة لأهل عُمان منذ فترات تأريخية قديمة لأسباب تجارية واقتصادية معروفة في تأريخ الجزيرة العربية.

أبو زيد: جزاك الله خيرا يا أبي العزيز على هذا العطاء فقد أمتعتنا بحديثك الشائق لهذا التابعي الجليل.

والآن نستودعكم الله للذهاب إلى البيت.

الجد والجدة: بـــارك الله فيكم وأثابكـــم الله على وصلكم لرحمكم.

الجد ملتفتا إلى زيد وهند: وأنتم يا أبنائي الصغار عليكم أن تتخذوا من جابر بن زيد أسوة حسنة في جده واجتهاده من أجل طلب العلم، ولا تنسوا حديث رسول الله حيث قال: «من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»، وقال: «تعلموا العلم فإن تعلمه قربة إلى الله ﷻ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه، وإن العلم لينزل بصاحبه في موضع الشـــرف والرفعة، والعلم زين لأهله في الدنيا والآخرة».

الجميع: صدق رسول الله ﷺ.

* * *

الليلة الرابعة

أم زيد: أين أبوك يا زيد؟

زيد: ذهب إلـــى المكتبة ليطلع على بعـــض كتب تاريخ الإباضية.

هند: إذن يا أمي، أنا سأذهب لإعداد الطعام ريثما يأتي أبي ونتمكن من مواصلة حديثنا باكرا.

زيد: يتبين يا أمي أن جابر بن زيد اكتسب علما واسعا بعد إقامته في البصرة، وتردده بين صحابة رسول الله ﷺ مما جعله من أبرز التابعين الأوائل في علم الحديث والتفسير وغيرها من العلوم الدينية.

أم زيد: نعم يا بني، وكان يعد من أكابر مفتي البصرة.

زيد: الشيء الذي يحيرني يا أمي أن كثيرا من العلماء لهم مؤلفات ومناقشات بين أســـاتذتهم ومعاصريهم، ولكني لم أر لهذا التابعي الجليل مؤلفات؟

أم زيد: كان له مؤلفات عديدة وقيمة جدا يا بني، فهو أول من دون الحديث وأقوال الصحابة في كتابه الضخم الذي سمي بديوان جابر والذي يعتبر أول كتاب ألف في الفقه، فقد كان يسجل فيه الأحاديث التي يسمعها من شيوخه، وأودع في صفحاته آراءه وفتاويه في كثير من أمور العقيدة، ويقال بأن ضخامة هذا الكتاب يعجز عن حمله البعير، ويقع في عشرة أجزاء.

زيد: أحسنت يا أمي على هذه المعلومة القيمة، فأنا غدا سأذهب إلى المكتبات للبحث عن هذا الكتاب حتى أقرأه وأستفيد منه.

أم زيد: للأسف يا بني، فقد هذا الكتاب ولم يعرف له خبر، وقد كانت نسخة من هذا الكتاب موجودة في إحدى مكتبات بغداد في عهد هارون الملقب بالرشيد، ويذكر أن نسخة كانت عند تلميذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، ثم توارثها أئمة الإباضية في البصرة حتى انتهت إلى محمد بن محبوب بن الرحيل، ويروى أن أحد أعداء الإمام أفلح الرستمي يقال له النفاث فرج بن نصر حصل على نسخة من هذا الكتاب، وقام بدفنه وإخفائه، ولم يعثر عليه إلى الآن.

زيد: وأين ذهبت النسخة الثانية؟

أم زيد: النسخة الثانية كانت في مكتبة بغداد، فقضي عليها حرقا مع نفائس الكتب التي كانت في تلك المكتبة العظيمة، فسبحان الله فلو بقي هذا الكتاب لكان من أكبر المراجع للمذهب الإباضي. مالي أراك حزينا هكذا يا ولدي؟

زيد: يؤسفني ما سمعت يا أمي، فمن المؤسف أن يضيع مثل هذا الكتاب، فعلم جابر بن زيد قد ذهب هباء.

أم زيد: لا يا بني لم يذهب هباء؛ رغم غياب هذا الكتاب وهذا الكنز الثمين، فقد بقي علمه في تلامذته الذين أخذوا عنه العلم وحملوه إلى غيرهم.

زيد: سبحان الله يا أمي كيف غاب عني ذلك! فأنا لم أسأل جدي عن تلامذة جابر بن زيد.

أم زيد: ها هو أبوك قد عاد، وسوف يخبرنا عن تلامذة جابر بن زيد.

أبو زيد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أم زيد وزيد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أبو زيد: أين هند لقد جلبت لها كتابا من المكتبة حتى تتعرف عن المذهب الإباضي أكثر.

أم زيد: ذهبت لتجهز لنا الطعام، هيا إلى العشاء، ثم نكمل حديثنا عن المذهب الإباضي وتلامذة الإمام جابر بن زيد.

وبعد العشاء.

أبو زيد: والآن يا أبنائي سأخبركم عن تلامذة جابر بن زيد ﷺ، فقد كان يجتمع لديه عدد كثير من طلاب العلم، ولكن هناك من نبغ واشتهر مثل قتادة شيخ البخاري، وأيوب بن دينار، وحيان الأعرج، وعبدالله بن إباض، وضمام بن السائب، وصديقه الوفي أبي عبيدة الذي ذاق مر العذاب من الطاغية الحجاج بن يوسف الذي وكل على البصرة، فقد قام بسجنهما من غير أي ذنب اقترفاه، وقد صبرا على قسوة السجن والمعاملة المهينة التي عوملا بها، فقد أخذ يصفها بقوله: أدخلنا الحبس، فلم يكن يوصل إلينا ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم قال: وإنما كنا نقص شواربنا بأسناننا، وإن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منه القمل، قال: وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش، ويعمد إلى مراكن عظام فيسكب فيها الماء، ثم يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن، ثم يضرب حتى تخرج رغوته، ثم يقال: يا أهل السجن خذوا ماءكم، فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلا، وأما

من أخذ من أسـفله فهو العذاب، قال: فكان ضمام ربما ضاق فيقول له أبو عبيدة: ويلك، ما هناك على من تضيق؟ وعلى من تدل؟ قال: فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق.

هند: سـبحان الله على هذا الظلم، وعلى هـذا الطغيان، ولكن اسـم أبي عبيدة ليس غريبا علي، فكثيرا ما يتردد عليّ عند حفظي لبعض الأحاديث.

أبو زيـد: نعم، فأبو عبيـدة هو من كبـار رواة الحديث، واسمه مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم المعروف بالقفاف، وقد كني أبو عبيدة بابنته عبيدة.

زيد: وماذا تعني كلمة القفاف يا أبي؟

أبو زيد: كان أبو عبيدة يقتـات من عمل يمينه ومن عرق جبينه، وكان يعمل السعف، ويصنع قفافًا، فلقب بالقفاف.

أم زيد: تقول إن هذا الرجل مولى.

أبو زيد: نعـم، كان أبو عبيدة زنجيا، أسـود اللون، أعور، فقيرا، ولكنه سـيد البيض بعلمه وعقله وفقهـه وتقواه وورعه وصلاحه وإخلاصه، ورسول الله ﷺ قال: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى» صدق رسول الله ﷺ.

أم زيد: يا أولادي هل تعرفون قصة هــذا الرجل العجيبة عندما تولى التدريس والجهد الذي بذله من أجل نشــر العلم وإعلاء كلمة الحق.

هند: لا يا أمي لا نعرفها، لقد شــددتنا إلى سماعها فهلا تخبرينا بها.

أم زيد: نكتفي اليوم بهــذا، وغدا ســأخبركم بقصة هذا الرجل التقي الصالح إن شاء الله.

* * *

الليلة الخامسة

زيد: ما أجمل الحياة بالعلم والعمل به، والمضي بالحياة على الطريق السوي.

أبو زيد: يا أبنائي هذه الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم والعمل به، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص لله، فعليكم بالعلم والعمل والإخلاص لله تعالى، تنالوا سعادة دنياكم وأخراكم، ولنستمع الآن للقصة التي سترويها أمكم عن أبي عبيدة وصبره على تخطي العقبات التي واجهته؛ لكي تتخرج على يديه أمة واعدة تحمل لواء الحق إلى جميع أصقاع الأرض، فطوبى لتلك النفس الرضية.

أم زيد: حسنا حسنا، فأنا لم أنس ذلك، وكانت هذه القصة في زمن الحجاج بن يوسف، فقد كان هذا الطاغية يلاحق أهل الحق والاستقامة، ويهددهم، ويرمي بهم في السجون، ويعذبهم أشد العذاب، وكان أبو عبيدة يحاول جاهدا أن يتخفى

عنه، فقد قام بالتدريس مستترا، وأخفى مدرسته عن أنظار الحجاج وأعوانه، فكانت في سرداب خفي وطويل، ووضع على مدخله سلاسل من حديد، فإذا سمعوا صلصلته هو وطلابه علموا أن غريبا يريد الدخول عليهم، فأوقفوا الدرس، واشتغلوا بصنع القفاف، فلا يشتبه الزائر بأمرهم، ويظن أنهم يصنعون القفاف، فإذا ذهب عنهم وأمنوا عيون الجواسيس، رجعوا إلى درسهم. ومن هذه المدرسة العظيمة تخرج فطاحل الدعاة والعلماء الذين انتشروا في بقاع الأرض يحملون معهم العلم، وعرفوا بحملة العلم.

زيد: يالها من قصة عجيبة! ويا لصبر هؤلاء الرجال! وحبهم للعلم والتعلم حتى مع ملاحقة الأعداء لهم.

أبو زيد: هكذا يكون صاحب العلم، يطلب العلم أينما كان ولو تحت الأرض، فهو لا يكل ولا يمل ولا يتراجع مهما أحيط به من قبل الأعداء أو الحاسدين.

زيد: وأنا قد قرأت من الكتب التي أحضرتها لنا يا أبي عن أبي عبيدة وتضحياته في سبيل الدعوة، وصبره على العذاب والمحن التي تلقاها من الدولة الأموية هو وأصحابه أهل الدعوة والاستقامة.

أبو زيد: وهل قرأت أن أبا عبيدة هو من تولى قيادة الإباضية بعد وفاة جابر بن زيد؟

زيد: نعم يا أبي، وكان يتمتع بقدرة سياسية بارعة، وكان القائد المحنك الذي جمع بين الدين والبعد السياسي، والنظام الدقيق الذي ساعده على تنظيم الدعوة الإباضية في مرحلتها الأولى.

أم زيد: هذا ليس غريبا على أبي عبيدة الذي اقتفى أثر نهج شيخه وإمامه ومعلمه جابر بن زيد، الذي كان دائما يذكر فضله عليه حين قال: «كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال مضل، ولولا أن من الله علينا بجابر بن زيد لضللنا».

أبو زيد: وقد تأثر بإمامه في تأسيس حركته الدعوية سرا مقتبسين ذلك من نهج السنة النبوية القويمة سنة رسول الله ﷺ حيث دعا النبي قومه سرا لعدة سنوات.

زيد: وقد رتب الأحاديث، وقام بروايتها عن كثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ منهم: جابر بن عبد الله الأنصاري، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وعائشة أم المؤمنين ـ رضوان الله عليهم ـ.

أبو زيد: ويقال إنــه أدرك بعض من أدركه الإمام جابر بن زيد، وأخذ علمه عن كثير من الصحابة، وأكثر ما أخذ علمه عن جابر بن زيد.

هند: بعد ما سمعته عن هذا الرجل العظيم الذي أفنى عمره وحياته من أجل العلم ونشره، فأنا في عجلة من أمري أن أعرف الأشخاص الذين نالوا شرف التعلم على يديه.

أبو زيد وهو يضحك: أنت كعادتك في عجلة وتلهف.

أم زيد مبتســمة: هكذا يكون طالب العلــم متلهفا للعلم والمعرفة.

أبو زيد: بارك الله فيك يا بنيتي، فقد تعلم على يد أبي عبيدة الكثير ممن كانوا يأتون من شتى بقاع الأرض لينهلوا مــن هــذا المعيــن الصافــي الــذي كان قريــب عهــد برسول الله ﷺ، وقد تخرج من ذلك السرداب علماء ودعاة وأئمة قادوا بلاد المشرق وبلاد المغرب، ونشروا دين الحق والاســتقامة بكل إخلاص وتفان، وقد عرفوا بحملة العلم جزاهم الله عنا خير الجزاء.

زيد: كثيرا ما أسمع عن حملة العلم، فمن هم يا ترى؟

أبو زيد: هذا ما سأتركه لكم لتبحثوا عنه وتخبرونا به، وهذه الكتب بين أيديكم، وغدا سنعرف منكم من هم حملة العلم.

أم زيد: أنت يا زيد ابحث عن حملة العلم إلى المغرب، وأنت يا هند ابحثي عن حملة العلم إلى المشرق، والآن هيا يا أحبابي اذهبا إلى النوم ولا تنسيا أذكار النوم.

هند: شكرا يا أمي، فأنا لا أستطيع النوم إلا بعد قراءة هذه الأذكار.

أم زيد: حفظك الله يا بنيتي، فنفس الإنسان دائما ترتاح لذكر الله فالله تعالى يقول: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

الجميع: صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم.

* * *

الليلة السادسة
وبعد صلاة التراويح

الأم والأب ينتظران ولديهما العزيزين، وما أحضراه لهما من معلومات عن حملة العلم إلى المغرب والمشرق.

أم زيد: ما رأيك يا أبا زيد أن نأتي بشي من العصير ريثما يأتي الأولاد.

أبو زيد: فكرة جميلة.

هند وزيد: السلام عليكم يا أغلى أبوين.

أم زيد وأبو زيد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أبو زيد: أرى بسمة الرضى ترتسم في وجهك يا هند، وهذا يدل على أنك وجدت في البحث المعلومات المطلوبة، فهات ما عندك يا هند عن حملة العلم إلى المشرق.

هند: أجل يا أبي، فبعد بحثي عن هؤلاء العلماء المجتهدين وجدت أن انتشار المذهب الإباض في المشرق أقدم عهدا من انتشاره في المغرب.

وكما عرفنا سابقا أن أبا عبيدة اتخذ إجراءات سرية مشددة في التعليم حتى لا يقع في أيدي الطغاة، وقد كان لا يؤيد الزواج من خارج جماعته، ونهى أتباعه من تولي أي منصب من مناصب الأمويين حفاظا على السرية ما أدى هذا التنظيم من الانتقال من السرية إلى الظهور، وكان الطلاب يتهافتون إلى هذه المدرسة العظيمة من كل حدب وصوب، وبكل تكتم وسرية، أما حملة العلم فتم اختيارهم من أفضل الرجال فهما وخلقا ودينا وورعا ومن عدة أمصار، فمنهم من أتى من اليمن مثل أبي أيوب وائل بن أيوب الحضرمي وسلمة بن سعد الحضرمي وطالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي أول إمام عقدت له الإمامة في بلاد المشرق، فنشر العدل والحق في بلاد اليمن، وجمعت إمامته اليمن والحجاز، ومنهم من أتى من الحجاز كمحمد بن سلمة المدني وأبي سفيان محبوب بن الرحيل القرشي المكي وأبي الحر علي بن الحصين، ومنهم من أتى من خراسان كهلال بن عطية الخراساني وأبي عيسى الخراساني وأبي عبد الله هاشم بن عبد الله الخراساني.

أبو زيد: ما شاء الله إنه بحث رائع، أكملي يا بنيتي.

هند: وبعضهم أتى من مصر كمحمد بن عبد الله المصري وعيسى بن علقم المصري، وانتشر المذهب الإباضي فيها، كما أنه انتشر في العراق، والذي أتى من العراق أبو غسان مخلد بن العمرد الغساني العراقي وعبد الملك الطويل وأبو سعيد عبد الله بن عبد العزيز.

أم زيد: كأنك نسيت البلد التي كان لها الفضل الكبير في أخذ العلم من هذا التابعي الجليل، ونشر المذهب الإباضي فيها.

هند: لا يا أمي، لم أنسها ألا تقصدين أرض الغبيراء عُمان؟.

أم زيد: نعم هي يا ابنتي.

هند: قد بحثت عنها، فوجدت عددا كبيرا ممن ذهبوا إلى البصرة من أجل طلب العلم، ولكني أذكر بعضهم وفي مقدمتهم الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي العُماني.

أم زيد: أحسنت يا بنيتي، فقد كان له الفضل الكبير في تدوين أقدم كتاب دون في السنة الشهير (بالمسند) في الحديث، ويسمى الجامع الصحيح، أحاديثه أصح رواية وأعلى سندا، وهذا الكتاب عمدة المذهب الإباضي في الحديث.

أبو زيد: كما أن أكثر أحاديثه ثلاثية يرويها عن شيخه أبي عبيدة عـــن جابر بن زيد عن ابن عباس وغيـــره من الصحابة، وكلهم مشهورون بالحفظ والضبط والصيانة والأمانة.

زيد: وهذا الكتاب تلقاه عن الربيع جملة من حملة العلم إلى المشرق وإلى المغرب، وتداوله العلماء فيما بينهم، وانتشر بين الخاص والعام.

هند: نعم، وهو كذلك، وقد أدرك الإمام الربيع في شبابه الإمام جابر بن زيد، وأكثر ما حمل مـــن العلم عن ضمام عن جابر، وكان يقول أكثر ما أخذت الفقه عـــن ثلاثة: أبي عبيدة وضمام وأبي نوح.

أبو زيد: ومن أي بلد هذا الإمام من عُمان؟

هند: هو من الباطنة من بلدة غضفان بولاية لوى.

أم زيد: وفي أي سنة توفي الربيع بن حبيب؟

هند: لقد بحثت عن ســـنة وفاته كثيرا، ووجدت أنه توفي بين سنة ١٧٥ ـ ١٨٠هـ.

أم زيد: ومن غير هـــذا العلم البارز من حملـــة العلم إلى المشرق؟

هند: ذلك البطـــل الهمـــام المجاهد أبو حمزة الشـــاري ألمختار بن عوف السليمي الأزدي.

زيد: وهل تعرفين من أي بلد هو من عُمان؟.

هند: هو من أهل بلد مجز من أعمال صحار، وقد كان هذا الرجل شهما مغوارا ذا شجاعة، فقد سار بمن معه من الرجال إلى اليمـــن لمبايعة طالب الحق في اليمـــن، فجهز الإمام معه جيشا وأرسله إلى الحجاز، فدخل مكة يوم عرفة، ثم خرج منها إلى المدينة، فخطب خطبته المشهورة على منبر رسول الله ﷺ.

أبو زيد: وفي أي سنة كان دخوله إلى الحجاز؟

هند: كان ذلك في سنة تسع وعشرين ومائة.

أبو زيد: بارك الله فيك يا هند على هذا الجهد الطيب الذي بذلته في بحثك هذا.

هند: لكن لم أنتهِ من تكملة البحث؛ فهناك أشخاص غير هؤلاء ممن حملوا العلم إلى المشرق لم أذكرهم بعد.

أبو زيد: أعلم ذلك يا ابنتي، ولكن وقت الحلقة انتهى، ولا بد أن نكون منظمين فـــي أوقاتنا، والآن حان وقت النوم فالتبكير في النوم يكون راحة لأبدانكم، ويســـاعدكم للقيام

مبكرا حتى تؤدوا صلاة الفجر في وقتها، وعندما تنامون باكرا وتستيقظون باكرا، يبارك الله في أعمالكم، لقول رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لأمتي في بكورها)، كما أن له فوائد صحية عظيمة.

زيد: أنت يا أبي رجل منظم.

* * *

الليلة السابعة

في غرفة الجلوس اجتمعت أسرة أبي زيد، وهم يتحدثون عن أمجاد أجدادهم وبطولاتهم.

أبو زيد: هيا يا هند ارجعي بنا إلى ذلك الزمن المبارك وحملة العلم إلى عُمان.

هند: من خلال بحثي يا أبي اطلعت على معلومات قيمة عن هـؤلاء الأبطـال الذين ضحـوا بأنفسـهم وأموالهم، وجاهدوا جهادًا مرًا من أجل الدعوة في سـبيل الله، ونشر العلم، ومن بين هـؤلاء بلج بن عقبة صاحـب أبي حمزة الشـاري الذي هو من أشـهر فراهيد بن مالك، فكان ممن ذهبوا مع أبي حمزة الشـاري إلى اليمن ثـم إلى الحجاز، وكان يعد عن ألف رجل.

أبو زيد: وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من بلدة صحار.

هند: ولا ننسى أيضا أحد كبار علماء زمانه العلامة الشيخ

أبا المنذر بشـــير بن المنذر النزوي العقـــري فقد أدرك عصر الإمام الجلندى، ثـــم كان له دور بارز في إعـــادة الإمامة بعد هزيمة بني الجلندى الذين حكموا عُمان مدة تزيد على أربعين ســـنة بعد قتل الإمام الجلنـــدى رَحِمَهُ اللَّهُ بجلفار، الـــذي كان هو ـ أيضا ـ من حملة العلم إلى عُمان.

زيد: لم تذكري سنة وفاة هؤلاء الأبطال.

هند: أبو حمزة الشـــاري وبلج بن عقبة لم أعثر على سنة وفاتهما، أما الشيخ بشير بن المنذر، فكانت وفاته في سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة، ومن حملة العلم إلى عُمان محمد بن المعلى الكندي الفشـــحي، وهو من علمـــاء عُمان الأوائل في القرن الثاني.

زيد: لماذا أطلقت عليه، بالفشحي؟

هند: هكذا يطلق عليه؛ لأنه منسوب إلى فشح، وهي بلدة بوادي السحتن من أعمال ولاية الرستاق، ولم أعثر على سنة وفاته أيضا.

أم زيد: هل هناك أحد غير هؤلاء يا بنيتي؟

هند: نعم يا أمي، وهو راشد بن عمر الحديدي، ولكن لم أعثر على ترجمته.

أبو زيد: أحسنت يا هند، لقد أبليت بلاءً حسنا في بحثك عن حملة العلم إلى المشرق.

الأب وهو ينظر إلى زيد: لا تهتم يا زيد، فنحن لم ننسك، فهات ما عندك عن الذين نالوا شرف حمل العلم من البصرة إلى المغرب.

زيد: حسنا يا أبي، فأنا عندما كنت أبحث عن هؤلاء الرجال الذين تكبدوا عناء السفر وشوقهم إلى الالتقاء بالعلماء وحمل العلم منهم إلى الناس تمنيت أن أكون معهم تحت سقف واحد في حلقة واحدة أمام ذلك العلم الفذ الإمام أبي عبيدة الذي كانوا ينهلون من معينه الصافي.

أبو زيد: تستطيع ذلك يا زيد.

زيد: وكيف ذلك يا أبي؟

أبو زيد: لأن في عصرنا الحاضر جملة من كبار العلماء وأبوابهم مفتوحة لطالب العلم، ولكن بعد توفيق الله، همتك العالية هي التي ستوصلك إلى مبتغاك بإذن الله، والآن هات ما عندك يا بني.

زيد: إن المغاربة حينما سمعوا بهذه المدرسة العلمية المتميزة، قاموا بتشكيل وفد أرسلوه إلى البصرة للدراسة

والتعمق في أصول المذهب الإباضي وفروعه، وكان هؤلاء من التلامـذة النجباء المجدين والمجتهديـن، وكان في مقدمتهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني.

هند: ما الذي جعل هذا الرجل يذهب إلى المغرب، وهو من المشرق من اليمن؟

زيد: الـذي دعاه إلـى ذلك الجهـاد من أجـل الدعوة، والصداقة الحميمـة التي كانـت تربطه بأصحابـه المغاربة، والمعاهدة التي قطعوها على أنفسـهم هو وأصحابه أن يكون متجههم واحدا أين ما ساروا، وتخرجهم من المعهد الذي جعل منهم إخوة متحابين في الله ربى فيهم حب الدعوة إلى الإسلام.

أبو زيد: ولا يسـتبعد ـ أيضا ـ أن أبا عبيدة رأى إرسال أبي الخطاب إلى المغرب للمزايا التي تؤهله بأن يكون قائدا للمسـلمين حيث عقدت له الإمامة في ليبيا في سنة ١٤٠هـ سنة ٧٥٧م.

زيد: وفعـلا كان نعم القائـد الرحيم الذي سـاس الأمة الإسـلامية هناك بمنهج قويم، ونشر العدل حتى استشهد سنة ١٤٤هـ رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن حملة العلم إلـى المغرب عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي عقدت له الإمامة سنة ١٦٠هـ، فقاد الناس

قيادة حكيمـــة، وكان عصره عصر ســـلم وأمـــان ومجد خلده التاريخ حتى توفي ســـنة ١٧١هـ، بعد أن مكث بالإمامة إحدى عشرة سنة.

أبو زيد: كما أن أبا عبيدة عندما تفرس فيه الذكاء والفطنة والنجابة وبأنه أهل للفتيا قال له: «أفت بما ســـمعت وبما لم تسمع» وهذا يكفيه شرفا ورفعة.

زيد: أما الثالث فهو الرجل الشجاع.

أبو زيد: عـــذرا يا زيد لا تكمـــل، فأرى هنـــد قد بدأت بالتثاؤب وسنكمل غدا ما بقي إن شاء الله.

هند: شكرًا لك يا أبي على شعورك الطيب اتجاهي، إني أحس ببعض الإرهاق.

* * *

الليلة الثامنة

كالعادة أسرة زيد مجتمعه في جلسة ملؤها المحبة والوئام.

أبو زيد: بالأمس حدثتنا يا زيد عن إمامين مخلصين كانا الشعلة المضيئة التي أتت من المشرق إلى المغرب لتنشر ضوئها المتوهج هناك بالعلم والمعرفة.

زيد: حقاً إنهما شعلة مضيئة أضاءت بلاد المغرب، فمن بين هؤلاء أيضا فارس من فرسان المغرب وقائد من قواد جيش أبي الخطاب وهو عاصم السدراتي، عالم من علماء القرن الثاني، فبعد عودته من المشرق أخذ يتنقل من بلد إلى بلد، ومن قرية إلى قرية، يلقي الدروس والمواعظ، وقد أقام عدة مجالس يجتمع الناس فيها للسؤال والاستفتاء وإقامة الدروس والمحاضرات اقتداء بمجالس شيخه الإمام أبي عبيدة التي عايشها في البصرة أثناء دراسته، وقضى حياته في العلم والتعليم ونصرة الدين بالقول والعمل حتى مات مسموما!

هند: مسموما كيف ذلك يا زيد؟

زيد: عندما أعد أبو الخطاب وقيل: أبو حاتم الملزوزي جيشـــه لدخول القيروان، كان عاصم من مقدمة المنضمين لهذا الجيش، فعندما حاصروا القيروان مرض مرضا شديدا، فاشـــتهى أكل القثاء، فبلغ أهل القيروان ذلك، فبعثوا بقثاء مســـمومة مع صبي يبيعها، فاشـــتروها لعاصم، فلما أكلها مات.

أم زيد: ســـبحان الله لقد اجتمع له أجر الجهاد ودســـائس الأعداء والمرض والموت بالسم ـ رحمه الله ورضي عنه ـ.

زيد: وكان من ضمن هـــذه الكوكبة المباركة الذين حملوا العلم إلى المغرب، وأكملوا مســـيرة راية الدعوة الإســـلامية قاطعين الصحـــاري والفيافي إســـماعيل بن درار الغدامســـي الليبي، الذي ينسب إلى بلدة غدامس التي تقع في الجنوب من طرابلس بليبيا، فعند رحيل هذا الرجل من المشرق، أخذ يسأل شيخه أبا عبيدة عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام قبل أن يســـتوي على متن الدابة، فقال له أبو عبيدة مداعبا: «أتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار» فأجابه: «أرأيت إن ابتليت بذلك فماذا تأمرني يرحمك الله»؟.

أبو زيد: وهل ابتلي بالقضاء عند رجوعه إلى بلده ليبيا؟

زيد: نعم يا أبي، وقام بهذه الوظيفة كما يقوم بها مؤمن يعرف دين الله، ويتحرى الحق، ويجري العدل متبعا رسوله الكريم ﷺ.

كما أنه قام بوظيفة أخرى، وهي وظيفة التعليم، وتكوين مدرسة خرجت كبار العلماء في ذلك الوقت الذي يعد الواحد منهم عن مائة رجل.

أبو زيد: ما شاء الله حقا إنهم رجال أبطال أفذاذ، فقد برهنوا للعالم أنهم أهل للمسؤولية التي ألقيت على عاتقهم، فلنسمع منك يا زيد عن الرجل الخامس.

زيد: الرجل الخامس هومن مدينة مشهورة تسمى تونس الخضراء، واسمه أبو داود القبلي النفزاوي الذي عاد مع رفاقه الأربعة سنة ١٤٠ هـ بعد أن قضوا خمس سنوات في تلقي العلم والمعرفة، وكان لهذا الشخص الدور البارز في نشر العلم، وأنشأ جيلا مثقفا ثقافة إسلامية صحيحة وداود القبلي لم يكن كرفاقه؛ فقد اعتزل الساحة السياسية من أول الأمر.

أبو زيد: وإن كان يا بني اعتزل السياسة فإن لكفاحه العلمي وإصلاحه الديني أكبر الأثر في تكوين ثلة من العلماء.

زيد: طبعا يا أبي، فلم يمض وقت طويل حتى برز عدد من العلمـــاء الإباضيين ممـــن تلقوا العلم مـــن حملة العلم الخمســـة ممن أخـــذ العلـــم على يديهـــم، ومن أشـــهرهم «عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي اختير إماما للإباضية بعد وفاة والـــده، ومنهـــم محمد بن يانـــس وعمر بـــن يمكتن وأبو خليل الدركلي».

هند: لقد أبهرني هذا التخطيـــط العجيب، فقد كان حملة العلم إلى المغرب من بلدان شتى: فمنهم من الجزائر، ومنهم من تونس، ومنهم من ليبيا.

أبو زيد: هذا لم يأت من محض الصدفة، وإنما بتخطيط ذلك الرجل العبقري الشجاع سلمة بن سعد الحضرمي، الذي أرسله أبو عبيدة إلى بلاد المغرب، والذي كان له دور كبير في نشر المذهب الإباضي في كثير من أنحاء بلاد المغرب، فقد قام بتشـــجيع هؤلاء بالرحيل إلـــى البصرة من أجـــل طلب العلم والاتصال بالعلماء الإباضية؛ للتفقـــه في دين الله، وفهمه فهما صحيحا، كما جاء عن رسول الله ﷺ.

أم زيـــد: لله دره، فقد بعث كوكبة علميـــة متميزة ببصيرته النيرة والثاقبة، أليس هو القائل عند وداعه لشـــيخه أبي عبيدة

وذهابه إلى بلاد المغرب: «وددت لو ظهر هذا الأمر يوما واحدا في بلاد المغرب، ثم لا أبالي أن تضرب عنقي»؟.

أبو زيد: نعم هــو القائل ذلك، وأنتما يــا ولدي يا أبنائي المخلصين فقد أبليتما بلاء حسنا في هذا البحث القيم بارك الله فيكما وجزاكما خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

زيد: أنا مــن خلال بحثــي يا أبــي عن هــؤلاء العلماء المجاهدين اطلعت على بطولاتهم وشــجاعتهم وكفاحهم من أجل الدعوة في سبيل الله، وما هذا الذي ذكرته إلا شيئًا يسيرًا ومختصرًا عنهم.

هند: أما أنا فقد تطورت لدي مهارة البحث، وتفتحت لي أبواب العلم والمعرفة التي لم تكن في الحسبان.

أبو زيد: بارك الله فيكما، وهذا هو الهدف من البحث الذي كلفتكم به.

* * *

الليلة التاسعة

أبو زيد: هل استمعت إلى محاضرة اليوم يا زيد؟

زيد: نعم، والذي شـــدني إليها بطولات أهل جزيرة جربة الذين اســـتطاعوا أن يهزموا أســـطولا حربيا يتكـــون من مائة وعشرين سفينة عليها عشـــرون ألفا من المقاتلين المدججين بالسلاح القوي، بل من أحدث الأسلحة التي اخترعها الإنسان في ذلك الوقت.

أبو زيد: ذلك هو جيش الإســـبان الذي يعد له الشـــمال الإفريقي ألف حساب من قوته وسطوته في ذلك الوقت.

زيد: ولكن كيف لهذه الجزيرة الصغيـــرة التي يحيط بها البحر من كل جانب أن تهزم هذا العدد الكبير من الجند؟

أبو زيد: اســـتطاعوا ذلك بعزمهم وقـــوة إيمانهم، فكانوا طوال ليلهم بين راكع وساجد، وقارئ للقرآن، وداع إلى الله في جنح الليل المظلم بأن يخلصهم من هؤلاء الطغاة، وقد شاء الله

أن يحقق لهـؤلاء الإباضيـة المؤمنين المجاهديـن الأبطال ما تمنوا، فعصفت بهذا الجيش عاصفة قوية جعلتهم ينهزمون، ويرجعون إلى سفنهم مولين مدحورين.

زيد: وفي أي مكان هذه الجزيرة؟

أبو زيد: في تونس الخضراء التي كان أغلب سكانها على المذهب الإباضي، وقد كان لهؤلاء الإباضية دور كبير في نشر العلم والمعرفة؛ فقد قاموا بتكوين جمعيات في القرن الخامس للهجرة تقوم بالتأليف والتدريس، ولهم نشـاط تجاري واسع الامتداد ساعد على نشر الإسلام إلى شرق أفريقيا.

زيد: وهل هناك بلدان أخرى انتشر فيها المذهب الإباضي؟

أبو زيد: هناك دول كثيرة احتضنت هذا المذهب الأصيل، ومن بين هذه البلدان التي انتشـر فيها هذا المذهب الجزائر، وكانت مشهورة بالدولة الرستمية، وكان جل سكانها على هذا المذهب، وتعاقب عليها ستة أئمة من أئمة الإباضية.

هند: حدثنا يا أبي ولو نبذة بسيطة عن أئمة الرستميين.

أبو زيد: حسـنا يا بنيتـي، أول من تولـى الإمامة من الرسـتميين عبد الرحمن بن رسـتم، وكانت ولايته في سنة

١٦٠هـ ـ ٧٧٦م، وكان هذا الإمام زاهدا تقيا لا يأخذ من المال إلا بمقدار حاجته، وقد أسس دولة قوية يخاف منها كل معتد يريد النيل منها، وعندما أحس بدنو أجله اختار سبعة من خيرة رجال الدولة، وأوصاهم بالتشـاور فيما بينهم لتحديد الإمام من بعده.

ثم توفي سنة ١٧١هـ وقيل سنة ١٦٨هـ.

زيد: ومن بويع بالإمامة من بعده؟

ابو زيد: بويـع ابنـه عبد الوهاب الذي اتسـعت الدولة الرستمية في عهده اتسـاعا كبيرا، وتوفي في سنة ٢١١هـ وقيل سـنة ٢٠٨هـ ـ ٨٢٣م، ثم خلفه ابنه أفلح الذي اتسـم بالورع والتقوى وحسن السيرة والعلم، وساد في عصره الأمن والعدل، حتى توفي سنة ٢٤٠هـ ـ ٨٥٤م، ثم انتقلت الخلافة إلى ابنه أبي بكر، ثم قتل وعين من بعده أبو اليقظان محمد سـنة ٢٤١هـ ـ ٨٥٥م، وأحبه الناس، وعاشوا في عهده بطمأنينة واستقرار، ثم توفي سـنة ٢٨١هـ ـ ٨٩٤م، واختار مجلس الشـورى من بعده أبا حاتم يوسف بن محمد الذي كان حسن السيرة مصلحا محبا للعدل، حتى قتل سنة ٢٩٤هـ ـ ٩٠٦م، وانتهت دولة الرستميين بعد إمامة اليقظان ابن أبي اليقظان.

أم زيد: وكانت المناطق التي يسكنها الإباضية في الجزائر ذات حركة علمية نشطة.

أبو زيد: ووصل انتشار المذهب الإباضي إلى زنجبار، التي كان لها الفضل الكبير في نشر الإسلام في شرق ووسط وجنوب إفريقيا، والذي ساعدهم على ذلك علاقتهم الاقتصادية التي تربطهم بتلك البلدان، ولهم دور كبير في نشر الثقافة الإسلامية.

أم زيد: وانتشر المذهب الإباضي ـ أيضا ـ في وهران وجبال الأوراس والنصف الجنوبي من أفريقيا.

أبو زيد: نكتفي اليوم بهذا، وقبل أن تغادروا إلى فراشكم أحثكم على القراءة فللقراءة أهمية كبيرة، فهي تنقل الإنسان من عالمه الصغير إلى عالم أوسع وأرحب سواء في ماضينا أو حاضرنا، والقراءة تشحذ العقل وتجدده، وعليكم أن تخصصوا في يومكم ولو ساعة أو ساعتين لقراءة الكتب العلمية المفيدة، فأمة اقرأ لا يجوز لها ألا تقرأ، والآن إلى النوم يا أشبال المستقبل.

* * *

الليلة العاشرة
وبعد صلاة التراويح

أبو زيد: ما رأيكم أن نكمل حديثنا عن الأماكن التي انتشر فيها المذهب الإباضي؟

زيد: أجل يا أبي.

أبو زيـــد: هناك بلـــدان كثيـــرة يا أبنائي انتشـــر فيها هذا المذهب الأصيل، ومن بينها دولة ليبيا، فقد كان معظم أهلها على المذهب الإباضي، ولكنه بـــدأ يقل ولم يبق إلا في جبل نفوســـة وزوارة، وكان لإباضية ليبيا دور علمي بارز، وخاصة ما بين القرنين الثالث والعاشـــر، فقد ظهر فيها عدد كبير من العلماء الذين أغنوا المكتبة الإباضية بمؤلفاتهم القيمة.

أم زيد: ولـــم يقتصر العلم في ذلك الوقـــت على الرجال فقط، بل قد نبغت نساء عالمات يشار لهن بالبنان، وقد سجل لهن التأريخ مناقشات وأقوال في مسائل الشريعة، ومنهن أيضا من قامت بمناظرة العلماء.

هند: ما أجمل أن نـرى النسـاء تنافس الرجال فـي العلم والمعرفة. ولقد شوقتني يا أمي إلى معرفة هؤلاء النساء العالمات.

أم زيد: هن كثيرات، ولكن سأذكر بعضهن عسى أن نقتدي بهن ونكون مثلهن، فمن بين تلكم النساء المرأة الصالحة العالمة تكسليت أم يحيى زوج أبي ميمون الجيطالي التي أخذت علمها عن عدد من العلماء، وقد عرفت بصرامتها وحزمها بأمور الدين، فكانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكـر، ولا تخاف في الله لومة لائم، وهي أول امرأة نفوسية فكرت في تخصيص مدرسة للبنات مجهزة بالأقسام الداخلية في قرية أمسين بجبل نفوسة.

هند: وهل كانت هذه المرأة من سكان جبل نفوسة؟

أم زيد: نعم، فهي من أهل بيمصليت بجبل نفوسـة، وقد اشتهرت أيضا بقوة الحافظة، وروي عنها عند سفرها إلى الحج سـمعت رجلا من الأندلس ينشـد ثمانين بيتـا فحفظتها مرة واحدة، وقرئ لها كتاب مرة واحدة وقالـت لهم: من أراد أن ينسخ فليكتب وأملته من حافظتها.

أبو زيد: ما شاء الله، ولا تنسي يا أم زيد أن تخبريهم عن تلـك المرأة التـي بلغت مبلغـا عظيما من العلـم والصلاح والتقوى والتي كان يقال بأن معها ثلث علم الجبل النفوسي.

زيد: ومن هي يا ترى؟

أبو زيد: هي وزورغ الأرجالية.

أم زيد: ومن هذه النساء أيضا العالمة الفقيهة تار منت التي لها مسائل فقهية في كتاب المعلقات، ومنهن أيضا تلك المرأة الصالحة والعالمة الحكيمة الجليلة التي اشتهرت بعلمها بين العلماء في ذلك الزمان، وهي تبركانت السدراتية التي أوصت جمعا من العزابة بعدة وصايا حين زيارتهم لها، وقد سجل التأريخ وصاياها في صفحاته.

هند: وما المقصود بكلمة العزابة؟

أبو زيد: هذه الكلمة تعني لغويا الانقطاع أما معناها في الاصطلاح الإباضي هو الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة، ويعود تأسيس هذا النظام إلى الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر النفوسي، يتراوح عدد أعضاءه من عشرة إلى ستة عشر شخصا يتم انتخابهم وفقا لشروط الصلاح والعلم والكفاءة.

زيد: وهل أول ما طبق هذا النظام في جبل نفوسة؟

أبو زيد: أجل يا بني، أول ما طبق في جبل نفوسة بليبيا، ثم انتقل إلى جزيرة جربة بتونس، ثم انتقل إلى وادي ميزاب

بالجزائر، وقد اندثر هذا النظام في كل من جبل نفوسة وجزيرة جربة، وبقي مستمرا في وادي ميزاب حتى الآن.

هند: وما هو المنهج الذي يسيرون عليه في هذا النظام؟

أبو زيد: إدارة حياتهم بشـكل ذاتي وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، مما جعلهم يديرون حياتهم المعيشية والاجتماعية والدينية والاقتصادية بفعالية كبيرة، وذلك من خلال تكاتفهم وأخوتهم وتعاونهم البناء وروحهم الاجتماعية، ولذلك لا تجد في مجتمعهـم قاطع طريق أو متسـولا أو دور خمر أو أماكن للفساد ولا عاطلا عن العمل.

زيد: ما شـاء الله، على هذا المنهج القويم الذي جمعهم فجعلهم كالأسرة الواحدة متعاونين متحابين رحماء بينهم.

أبو زيد: هذه هي أخوة الاسـلام يا ولـدي، نكتفي اليوم بهذا يا أحبابي، وغدا بمشـيئة الله سأخبركم عن البلد الأصلي الذي احتوى هذا المذهب وبشكل عميق.

زيد وهند: شـكرا يا أبي ويا أمي على هـذه المعلومات القيمة، ونحن ننتظر الغد بفارغ الصبر.

* * *

الليلة الحادية عشرة

أبو زيد: كان حديثنا في الليالي الماضية عن البلدان التي انشر فيها المذهب الإباضي، ولكننا لم نذكر البلد الأصلي الذي احتضن المذهب الإباضي بشكل كبير وإلى يومنا هذا وهي عُمان.

هند: كم أتمنى أن تخبرنا عن هذا البلد بشكل خاص.

أبو زيد: سوف أحدثكم عنها، ولكن باختصار شديد، لأن لعُمان أمجادا وتأريخا عريقا، والكلام فيها يطول، فعُمان هي التي ظلت المركز للإباضية حتى قيل: «باض العلم بالمدينة، وفرخ بالبصرة، وطار إلى عُمان»، فبعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وسماع أهل عُمان بذلك هبو مسرعين إلى المدينة المنورة للالتقاء برسول الله ﷺ، فدخلوا في دين الله طواعية.

زيد: ومن أول من حضي بلقاء رسول الله ﷺ من عُمان؟

أبو زيد: أول من قصد رسول الله ﷺ هو مازن بن غضوبة، وهو أول من أسلم من عُمان، وكان إسلامه فيما قيل سنة ستة

للهجرة، حتى شرح الله صدره للإسلام، ورجع يدعوا قومه إلى دين الله الحنيف ونشره في أرجاء عُمان.

أم زيد: وسبب إسـلامه يا أبنائي، فيما يروى أنه كان يسدن صنما، فعتر ذات يوم عتيرة، فسمع صوتا من جوف الصنم، وهو أبيات من الشـعر، تنبئ عن ظهور النبـي ﷺ، وتكرر ذلك عدة مرات، قال مازن: إن هذا لعجب، وأنه لخير يراد بي، قال: فبينما نحن على ذلك إذ قدم رجل من أهل الحجاز يريد دما، فقلنا له: ما وراءك؟ فقال: ظهر رجل يقال له أحمد، يقول لمن أتاه: أجيبوا داعي الله، فقلت: هذا والله نبأ ما سمعت من الصنم، فوثبت عليه وكسرته جذاذا، وركبت راحلتي حتى قدمت على رسول الله ﷺ بالمدينة، فسألته عما بعث له، فشرح لي الإسلام، فأسلمت.

زيد: إذن مازن بن غضوبة يعد من صحابة رسول الله ﷺ.

أبو زيد: نعم يا بني، وقد قال:

إليـك رسـول الله خبـت مطيتي
تجوب الفيافي من عُمان إلى العرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصى
فيغفر لـي ربـي فأرجـع بالفلج
إلى معشـر جانبت فـي الله دينهم
فلا دينهم ديني ولا شرجهم شرجي

هند: من أي بلد من عُمان هذا الرجل الصالح؟

أبو زيد: من بلد سمائل بداخلية عُمان، ومن آثاره الباقية بسمائل إلى الآن مسجده المشهورمسجد المضمار الذي بناه بعد رجوعه من المدينة سنة ستة للهجرة.

زيد: وعُمان تتفاخر بمثل هذا الرجل الذي بسببه انتشر الإسلام إلى باقي المدن العُمانية.

أم زيد: حتى أن رسول الله ﷺ امتدح أهل عُمان في الحديث الذي رواه أبو برزة حينما بعث الرسول ﷺ رجلا إلى قوم فسبوه وضربوه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: (لو أهل عُمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك) ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: (رحم الله أهل الغبيراء آمنوا بي ولم يروني).

زيد: إذن فاسم الغبيراء يطلق على عُمان؟

أبو زيد: نعم، وقد أثنى عليهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي وصف أهل عُمان بطاعتهم لرسول الله ﷺ حينما قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه، فقال: (معاشر أهل عُمان، إنكم أسلمتم طوعا لم يطأ رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر، ولا عصيتموه كما عصت غيركم من العرب، ولم ترموا بفرقة ولا تشتت، فجمع الله على الخير

شملكم، ثم بعث إليكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتموه إذا دعاكم على بعد داركم، وأطعتموه إذا أمركم على كثرة عددكم وعدتكم، فأي فضل أبر من فضلكم وأي فعل أشرف من فعلكم، كفاكم قوله ﷺ شرفا إلى يوم المعاد، ثم قام فيكم عمرو ما أقام مكرما، ورحل عنكم مسلما، وقد من الله عليكم بإسلام عبد وجيفر ابني الجلندى، وأعزكم الله به وأعزه بكم، وكنتم على خير حال وجميل حتى أتتكم وفاة رسول الله ﷺ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم وقمتم مقاما حمدناكم فيه، ومحضتم بالنصيحة، وشاركتم بالنفس والمال، فيثبت الله به ألسنتكم، ويهدي قلوبكم، وللناس جولة، فكونوا عند حسن ظني بكم، ولست أخاف عليكم أن تغلبوا على بلادكم، ولا أن ترجعوا عن دينكم، جزاكم الله خيرا).

زيد: ما أجمل هذا الكلام في أهل عُمان من خليفة رسول الله ﷺ وصديقه المخلص الوفي، وهذا يشير إلى المكانة التي تصدرتها عُمان والعُمانيين في الإسلام.

زيد: وهل ساهمت عُمان في نشر الإسلام؟

أبو زيد: نعم، فعُمان قد ساهمت في الدعوة الإسلامية منذ السنوات الأولى لظهور الدين الإسلامي، والعُمانيون

هم من قاموا بنشـــر الإســـلام في كثير من مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا، ومناطق وسط أفريقيا، وقاموا أيضا بنشر الإسلام في الصين والموانئ الآسيوية، وذلك عبر نشاطهم التجاري والبحري.

أم زيد: ولم يكتفوا بنشر الإسلام في هذه المناطق فحسب؛ بل قاموا بنشر الإسلام في الهند الشرقية.

هند: وبما أنها شاركت في الدعوة الإسلامية، فلا بد أنها شاركت في الفتوحات الإسلامية.

أبو زيد: بالطبع يا هند، فعُمان لها دور كبير في حروب الردة التي ظهرت بعد وفاة رســـول الله ﷺ، ولها دور فعال في حركة الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند محاربته للفرس، كما أنها ساهمت في فتح الهند عن طريق البحر في منتصف العقد الثاني للهجرة، ولهم مشاركة في فتح المغرب والأندلس وفتح العراق وبلاد السند وفارس.

زيد: ويكفي أن مؤســـس المذهب الإباضي جابر بن زيد عُماني الأصل، وقد قرأت يا أبي في بعض كتب تاريخ عُمان بأن العُمانيين استطاعوا أن يطردوا البرتغاليين وحلفائهم الفرس الذين استولوا على صحار وجلفار ومسقط، فحرروها من أيدي

هؤلاء الطغاة، كما أنهم استطاعوا بقوة إيمانهم وشجاعتهم افتتاح ممباسا وكلوة وزنجبار على ساحل إفريقيا الشرقية.

هند: ولكنهم لم يكتفوا بإخراج الفرس من عُمان؛ وإنما حاربوهم وأخرجوهم من البحرين، واستطاعوا طرد البرتغاليين من شرق إفريقيا وسواحل الهند الغربية.

أبو زيد: وقد بنى العُمانيون إمبراطورية كبيرة شملت الساحل الإيراني والهندي والإفريقي، وكان الأسطول العُماني أكبر قوة في البحار الجنوبية والخليج العربي، وهذا الذي ذكرناه عنهم ما هو إلا غيض من فيض فهناك بطولات كثيرة سطرها التاريخ على عبق المجد من صنع عُمان والعُمانيين، ولولا أن الوقت قد داهمنا لتوسعنا أكثر في الحديث عنهم، والآن تصبحون على خير.

هند وزيد: وأنتم من أهل الخير.

* * *

الليلة الثانية عشرة
في هذه الليلة المباركة تجمع أفراد العائلة على مائدة الرحمن

أبو زيد: مالي أراك شاردة الذهن يا هند؟

هند تنتبه لصوت أبيها بعد شرود بعيد.

هند: كنت أفكر في نوع العلم الـــذي كان يحمله الرجال الذين حملوا العلم من البصرة إلى شتى بقاع الأرض.

أبو زيد: أحسنت يا بنيتي على هذا السؤال القيم، وهذا يدل على مـــدى اهتمامك الشـــديد بهذا الموضـــوع، فبعد ما رجع ـ يا بنيتي ـ، حملة العلم إلى بلدانهم قاموا بتشكيل حلقات ومجالس علمية تتضمن علوم الشـــريعة الســـمحة، وأصول الديـــن والفقه وأصوله بجانب علـــوم اللغة والفلك والرياضيات، وقد ألف علماء الإباضية كتبا كثيرة في التفسير والحديث والفقه وفي التوحيد وعلـــم الكلام، واتجهوا إلى خدمة الإسلام علما وعملا.

الأم: وقد أسسوا مدارس العلوم النقلية والعقلية.

زيد: وما مصادر التشريع عندهم؟ وهل يختلفون في ذلك عن المذاهب الإسلامية الأخرى؟

أبو زيد: المصدر الأول عندهم القرآن الكريم ثم السنة النبوية، ومن مصادر شريعتهم الإجماع والقياس والاستدلال، ويدخل تحت الاستدلال الاستحسان والاستصحاب والمصالح المرسلة والعرف؛ ولذلك فهم لا يختلفون عن المذاهب الإسلامية الأخرى.

هند: كيف ينظر الإباضية إلى غيرهم من المذاهب؟.

أبو زيد: ينظرون إلى كل من ينطق بالشهادتين له ما للمسلمين وعليه ما عليهم من حقوق وواجبات، متمسكين بقول رسول الله ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يقتله ولا يحقره، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه). فلذلك تجد أسلافهم يتمسكون بهذا الأمر، فالإمام أبو حمزة الشاري، حين واجه الحروب من قبل أهل الظلم فإنه لن يعلن القطيعة والظلم، بل قال وعلى منبر رسول ﷺ: الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة: مشركا بالله عابد وثن، أو كافرا من أهل الكتاب، أو إماما جائر.

أبو زيد: وهذا ـ أيضا ـ موقف الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ عندما قال:

ونحـــن لا نطالـــب العبادا فـــوق شـــهادتيهم اعتقـــادا
فمـــن أتـــى بالجملتين قلنا إخواننـــا وبالحقـــوق قمنا
إلا إذا مـــا أظهـــروا ضلالا واعتقدوا فـــي دينهم محالا
قمنا نبيـــن الصـــواب لهم ونحســـبن ذاك مـــن حقهم
فمـــا رأيتـــه مـــن التحرير في كتب التوحيد والتقرير
حـــل مســـائل ورد شـــبه جاء بهـــا من ظـــل للمنتبه
قمنـــا نردها ونبـــدي الحقا بجهدنا كي لا يضل الخلقا
لو ســـكتو عنا سكتنا عنهم ونكتفي منهم بأن يســـلموا

أبو زيد: كما أنهم لا يرفعـــون كلام أئمتهم وعلمائهم إلى درجة كلام الله تعالى، أو كلام رسوله ﷺ وإن بلغوا من العلم والورع ما بلغوا. وقد قال الإمام السالمي في ذلك:

ولا تناظـــر بكتـــاب الله ولا كلام المصطفـــى الأواه
معنـــاه لا تجعل لـــه نظيرا ولـــو يكـــون عالمـــا خبيرا

وقال أيضا:

ونحن حيـــث أمـــر القرآن لا حيـــث ما قـــال لنا فلان

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

حســـبك أن تتبع المختارا وإن يقولوا خالـــف الآثارا

أم زيد: وقد أشـاد بهذا المسـلك بعض علماء المذاهب الأخرى، ومـن بينهم العلامة السـيد عبد الحافـظ عبد ربه، وهومن علماء الأزهر الشريف، حيث قال عنهم: لقد استنبطوا مذهبهم من القرآن الكريم، واقتبسـوه من السـنة الشـريفة، وسلكوا في مسـيرتهم إلى عبادة الله نفس الطريق التي سلكها الصحابة وارتضاها الإجماع، وحرصـوا كل الحرص على أن تكـون خطواتهم علـى ذات الدرب في نفـس الطريق وفوق «افريز» الشارع، ومع السبيل التي قطعها الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في مشواره الطويل، وشوطه البعيد جيئة وذهابا على مدى مسـيرته المباركة ورسـالته الميمونـة عبر الثلاثة والعشرون عاما، ومع تحريهم الصدق وحتمية الحق ومجاهدة النفس وريـادة المعاناة والرياضـة والترويض على المشـقة والمقاساة حتى اسـتبان لهم الأمر، ووضح لهم الطريق وتبين للعالم أجمع ـ أو المخلصين المنصفيـن ـ أن هؤلاء هم أهل الاستقامة «أوهم في الواقع وعلى الحقيقة ـ الفرقة الناجية التي أخبر عنها الصادق المعصوم، والتي أمر الله رسوله أن يختارها وينتهجها سـبيلا يوصل إلى عبادته ومرضاته في قوله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف ١٠٨]، والمذهب الإباضي ليس

عجيبا فـي الدنيا ولا غريبـا في الحيـاة، وإنما هـو العملة الصحيحة، التي يجب تداولها وتناولها والتعامل بها في شتى الأنحاء وفـي جميع المناخات والأجـواء، وهي ـ بعون الله ـ عملة لا ينالها التزييـف أو التلبيس، ولا يطولهـا الوضع أو التدليس، ولا يجوز في منطقها العمل بين بين، ولا التنكر في وجهين ولا المشي على الحبلين، فالحق عندها واحد لا يتجزأ وكل لا يتوزع». وقد قال كلاما عنهم يطـول ذكره يا أحبابي، فارجعوا إليه من كتابه الإباضية مذهب وسلوك.

أبو زيد: وهذا علم من أعلام الإباضية البارزين المعاصرين سماحة الشيخ أحمد بن حمد ـ حفظه الله ـ كثيرا ما يدعو إلى البعد عـن التعصـب، ويدعو إلـى توحيد كلمة المسـلمين، والتأليف بيـن قلوبهم، وقد قـال في بعـض المقابلات التي أجريت له: «نحن دائمـا نميل إلى ما يجمع الشـمل، ويرأب الصدع، ويؤلف القلوب، ويوحـد الكلمة، فلا ينبغي أن يكون الإنسان متقوقعا على نفسه يصر على أن ما يقوله وحده الحق، فالحق يعرف بالرجوع إلى الأصول من الكتاب والسنة النبوية الثابتة الصحيحة على صاحبها ـ أفضل الصلاة والسـلام ـ ولا ريب أن الأمم التي أخذت تتجمع وتتحـد أدركت مصالحها، أدركت أن الفرقة عذاب، وأن الوحدة رحمة، وأن الشقاق ضعف

والوفاق قوة، وأن العداوة تعب والألفة راحة، فلذلك سارعت لما فيه مصلحتها، بينما أمة الإسلام قبل أن تكون الوحدة عندها استجابة لمصالحها، هي استجابة لداعي الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإن الله ﷻ فرض عليها الوحدة كما فرض عليها التوحيد، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ويحذر الله عباده من التفرق والاختلاف عندما يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. والله سبحانه يبين أن الفرقة تؤدي إلى الضعف والتشتت، وتؤدي إلى انهيار القوة، حيث يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وهكذا نجد دعوة القرآن دعوة تدوي في هذا الوجود، حاضة هذه الأمة على الاتحاد والتآلف.

زيد: كم نتمنى ـ يا أبي ـ أن تعود الأمة الإسلامية إلى لواء الوحدة والتسامح والتكاتف، حتى تكون أمة قوية كما أرادها الله تعالى ونبيه ﷺ.

أبو زيد: نتمنى ذلك، وهناك من يسعى إلى الوحدة من المخلصين المجتهدين جزاهم الله خيرا، وأثابهم على ذلك.

* * *

الليلة الثالثة عشرة
زيد وأبوه في طريقهما من المسجد إلى البيت

زيد: الحديث عن المذهب الإباضـــي جميل ورائع، وقد حدثتنا أن للمذهب اتصالا وثيقا بعهد رسول الله ﷺ والتابعين، وأخبرتنا عن مؤسســيه، وعــن تأريخه الحافــل بالتضحيات والأمجاد الباهرة التي تدل على أنه مذهب على طريق الحق بلا شك، ولكن لم تخبرنا ـ يا أبي ـ عن سبب ثبات هذا المذهب وصموده طيلة هذه القرون؟

أبو زيد: سبب ذاك الصمود ـ يا بني، هو العقيدة الصحيحة الناصعة التي استمدوها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

زيد: إذن جلســتنا ســتكون اليوم عن أهم المبادئ التي يعتمد عليها الإباضية في العقيدة.

أبو زيد: إن شــاء الله، ومن حسن حظك ســيزورنا اليوم خالك عمرو، وبما أنه مدرس في التربية الإســلامية، فسفيدنا كثيرا خلال مناقشتنا في موضوع العقيدة.

وفي البيت.

أبو زيد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أم زيد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

زيد: هل وصل خالي يا أمي؟

أم زيد: لا لم يصل بعد، مالي أراك متلهفا إلى رؤية خالك يا زيد؟

أبو زيد: وهو يبتسم إنه متلهف إلى معرفة بعض المسائل العقائدية.

هند: لم أفهم شيئا؟

أبو زيد: إن أخاك يريد أن يسأل خالك عن مسائل في العقيدة، حتى يعبد الله على علم وبصيرة.

أم زيد وأبو زيد وهما يضحكان: اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال.

وبعد وصول الخال والترحيب به واحتسائهم القهوة.

أبو زيد: جزاك الله خيرا يا عمرو على هذه الزيارة المباركة، وهذا زيد يريد أن يستغل فرصة وجودك بيننا حتى يسألك عن أصول الإباضية في العقيدة.

عمرو: ما شاء الله، مرت السنوات سريعا، وأصبح زيد شابا يافعا مجتهدا يسأل ويبحث عما يهمه في أمور دينه، وأنا قبل أن أجيبه على أسئلته أود أن أنبه عن أمر مهم جدا يختص بعقيدة الإباضية، فهم استقوا عقيدتهم من القرآن والسنة، وإمامهم جابر بن زيد عاصر الصحابة الذين أخذوا علمهم من الرسول ﷺ وذلك في القرن الأول الهجري، وبذلك يتبين أن الإباضية اقتبسوا علمهم وعقائدهم في خير القرون الذي كان صحابة رسول الله ﷺ ينشرون فيه العلم قبل أن يكون للمذاهب الأخرى أي وجود، ومن المعلوم أن جابر بن زيد محل ثقة لدى جميع المذاهب.

أبو زيد: والمذهب الإباضي يرتكز على أسس ثابتة ومبادئ راسخة وقواعد صلبة، مما مكنه الصمود من القرن الأول الهجري وعلى مر هذه العصور، فهو يواجه ويصارع مختلف الجبهات التي تحوك له الدسائس، وبالرغم من ذلك تجد أصحاب المذهب الإباضي محافظين على هذه العقيدة الصافيه والدين الناصع كما هو على عهد رسول الله ﷺ.

عمرو: وأعظم ما يمتاز به الإباضية عن غيرهم في مسائل العقيدة هو تنزيههم المطلق لذات الله ﷻ عن كل صفة فيها

نقصان ووصفهم لله تعالى بكل صفات الكمال، ويعتقدون اعتقادا جازما أن الله ﷻ واحد في ذاته لا شريك له ولا مثيل ولا نظير ولا ند، مباين لمخلوقاته في جميع صفاته، فلا يوصف بشي من صفات خلقه قط لأنه؛ خالق الخلق.

زيد: وهل لهم دليل على ذلك؟

عمرو: نعم، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهذه الآية تدل دلالة واضحة على توحيد الله تعالى في ذاته وصفاته وأسمائه.

كما قال الناظم:

وكل ما صورته ببالك ... فالله بخلاف ذلك
فعلم كنه ذاته محال ... ممن سواه ولذاك قالوا
العجز عن إدراكه إدراك ... والخوض في إدراكه إشراك

زيد: أرجوا أن توضحا لي ما قلتماه فأنا لم أستوعبه جيدا.

عمرو: معنى هذا كله يا زيد، أن الإنسان الذي يؤمن بالله ربا وبمحمد رسولا ﷺ عليه أن يوقن يقينا جازما أن الله ﷻ لا يشبه شيء ولا يشبهه شيئا، وأنه مخالف لخلقه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله؛ أي لا تشبه ذاته ذواتهم ولا تشبه صفاته

صفاتهم ولا تشبه أفعاله أفعالهم، وبهذا يستحيل في حقه تعالى الشبيه من وجه.

هند: إذن بما أن ﷻ لا يشـــبه شيء من صفات مخلوقاته، فكيف لنا أن نصفه بأنه عليم وقادر وسميع وبصير؟ وهذا من صفات المخلوقات وتقتضي العجز.

عمرو: بورك فيك على هذا السؤال يا هند، لا يجوز لنا أن نقيس صفات الله ﷻ بصفات خلقه؛ فصفات الله ﷻ هي عين ذاته، بخلاف صفات المخلوق فسمعه وبصره وعلمه وإرادته هي غير ذاته.

زيد: وهل هناك فرق بين صفات الله الذاتية وصفاته الفعلية؟

عمرو: قبل أن أخبرك عن الفرق بينهما أريد أن أوضح لك منهج الإباضية في هذه المسألة: فهم قد صنفوا الصفات على ثلاثة أنواع:

أولها: صفات واجبة لله تعالـــى كالوجود والأزلية والأبدية والحياة والعلم، وتسمى صفات الذات أو الصفات الذاتية.

ثانيا: صفات مســـتحيلة على الله تعالى كالحدوث والعدم والفناء والجهل والعجز أو مشابهة الأجسام المخلوقة، ثالثها:

صفات جائزة لله تعالى يوصف بها حين يفعلها، ولا يوصف بها إذا لم يفعلها لجواز فعلها أو تركها كالإماتة والإحياء، وتسمى الصفات الفعلية، والفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية أن الله ﷻ لا يجوز أن يتصف بضد صفاته الذاتية، بينما يمكن أن يتصف بضد صفاته الفعلية.

زيد: إذن معناه لا يجوز أن نقول: علم الله كذا وجهل كذا، أو قدر على كذا وعجز عن كذا، أو أبصر كذا وعمي عن كذا، أو سمع كذا وصم عن كذا.

عمرو: جزيت خيرا يا زيد، وعلى تحليلك الصائب، وأما صفات الأفعال فتجامع أضدادها في الوجود عند اختلاف المحل كالإحياء والإماتة والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال.

هند: ومعنى ذلك أنه يجوز أن نقول: أحيا الله فلانا وأمات فلانا، وأعطى فلانا ومنع فلانا، وأذل فلانا وأعز فلانا، ونصر فلانا وخذل فلانا، وأفنى كذا وأوجد كذا.

عمرو: أنت لا تقلين شأنا عن أخيك في الذكاء يا هند، زادكم الله علما وفهما، وبهذا يتبين أن صفات الأفعال هي الصفات الجائزة في حقه تعالى؛ لأنها لا تؤدي إلى نقص بسبب اتصافه بها ولا بأضدادها.

هند: وما معنى قولنا صفات الذات هي عين الذات يا خالي؟

عمرو: أي صفاته تعالى الذاتية هي ذاته، وليست هي غير ذاته، فعندما نقول عليم أي عليم بذاته لا بعلم هو غيره؛ أي ذاته ﷻ منكشفة لها المعلومات انكشافا تاما غير محتاجة في ذلك الانكشاف إلى واسطة بينها وبين المعلوم، وأنه تعالى سميع بذاته لا بسمع مركب فيه أو زائد عليه؛ أي ذاته تعالى منكشفة لها المسموعات انكشافا تاما غير محتاجة في ذلك الانكشاف إلى واسطة بينها وبين المسموعات، وهكذا القول في جميع الصفات.

هند: وضح لي أكثر يا خالي.

عمرو: بالمثال يتضح المقال يا هند، مثلا علم الإنسان مخلوق ومكتسب، محدود وناقص، له بداية وله نهاية، ينموا بالتعلم وهو معرض للتبديل والتغيير وحتى الزوال.

هند: جزاك الله خيرا يا خالي الآن فهمت.

أبو زيد: نكتفي بهذا يا أحبابي، فقد أرهقتم خالكم بالأسئلة.

عمرو: لقد سعدت بأبنائك يا أبا زيد؛ فهم قمة في الذكاء والفهم، والدليل على ذلك هذه الأسئلة القيمة بارك الله فيهم.

زيد: نشـــكرك يا خالي على زيارتك لنا، وبذلك قصارى جهدك في توصيل المعلومة لنا.

هند: ونشكرك أيضا على الفاكهة اللذيذة التي أمتعت بها جلستنا.

عمرو: لا شـــكر علـــى واجب، فربمـــا أمتعتكـــم بفاكهة الأبدان، ولكنكم أمتعتمونا بفاكهة الـــروح التي تريح النفس، وتنعش القلب، وتحيي الضمير، وتوقد الهمم إلى طاعة الله ﷻ ونيل رضاه من خلال هذه الجلسة المباركة.

جعل الله ذلك في ميزان حســـناتكم، وجعل أيامكم طاعة وإخلاصا.

* * *

الليلة الرابعة عشرة
في ليلة مستنيرة ببركات شهر رمضان الكريم

هند: أنا في حيرة من الآية التي قرأتهـا اليوم، ففي الليلة الماضية ذكرتم أن الله مبايـن للمخلوقات، واليوم عند قراءتي لسورة طه استوقفتني هذه الآية (الرحمن على العرش استوى) ألا تدل هذه الآية على الجلوس والاسـتقرار؟ وإذا قلنا بهذا فمعنى ذلـك أن الله متحيز في مكان، ونصفـه بفوق وتحت، ونسأل عنه بأين وكيف ومتى، وهذه من صفات المخلوقات.

أم زيد: تفسـير الآية ليس كذلك يا بنتي، فالاسـتواء هنا بمعنى الملك والقدرة، وليس الجلوس والاستقرار.

أبو زيد: ومعناه أن الله ﷻ استولى على كل شيء في هذا الكون، وأنه هو المدبر والمهيمن لخلقه ولكل شـيء في هذا الوجود.

هند: ولكن كيف لكم بهذا المعنـى والظاهر في الآية هو الجلوس والاستقرار؟

أبو زيد: هذا التأويل ـ يا بنيتي ـ يقتضيه تنزيه الله تعالى ليتوافق مع جلاله وعظمته، وهـو قائم على المجاز والعرف اللغوي.

هند: وما معنى كلمة التأويل يا أبي؟

أبو زيد: معنـاه هو صرف اللفظ عـن حقيقته إلى مجازه لقرينة اقتضت ذلك الصرف.

أم زيد: والإباضية يحرصون أشـد الحرص على تأويل أو تفسير الآيات التي تقتضي التشبيه في الظاهر وفق منهج معين يؤدي إلى تنزيه الله ﷻ عما يوهم التشبيه بخلقه، مستدلين بالآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

زيد: وهل هناك أدلة يسـتندون إليها في سـلوكهم منهج التأويل؟

أبو زيد: لهم في ذلك أدلة نقلية وعقلية: فمن أدلتهم النقلية الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ويرون أن هذه الآية إشارة إلى تمكن الراسخين في

العلم من التأويل، كما أن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] دلالة عند الإباضية على ضرورة فهم القرآن، وعدم الاكتفاء بظاهره.

أم زيد: وكذلك يعتمدون في التأويل على ما أثر عن رسول الله ﷺ: (ما من كلمة إلا ولها وجهان فاحملوا الكلام على أحسن وجوهه).

هند: وهل لهم سلف على ذلك؟

أبو زيد: نعم، سلفهم في ذلك صحابة رسول الله ﷺ مثل عبدالله بن عباس الذي دعا له رسول الله: (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل).

أم زيد: كما أنهم يشترطون على المتأول أن يكون عالما وملما بأسرار اللغة العربية.

زيد: وما شأن اللغة العربية في التأويل أو التفسير؟

أبو زيد: اللغة العربية اختارها الله ﷻ حتى تكون وعاء للقرآن الكريم؛ فالله ﷻ أنزل القرآن باللغة العربية الفصحى لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وكلمة الاستواء يطلقها

العرب بمعنى الاستيلاء والملك والقهر، وبهذا التأويل يتبين أنه لم يكن خارجا عن مدلولات اللغة العربية واستعمالاتها، والشاعر يقول:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

وهذا معناه أن بشـــر ملك العراق، ولم يكن جالس على العراق كلها.

هند: حقا يا أبي، فالقرآن لا يحمل على ظاهره في جميع آياته.

أبو زيد: بالطبع يا بنيتي، فالإباضية لم يتأولو القرآن عن هوى أنفســهم بل اجتهدوا اجتهادا كبيرا، وأخذوا يبحثون في القرآن والسنة واللغة العربية عن كل كلمة تأولوها في القرآن، وأثبتوا من خلال بحثهم أن القرآن لو حمل على ظاهره لتناقض في كثير من الآيات، ويرون أن معجزة القرآن تتجلى في باب التأويل والاستنباط على أساس الإخلاص لله ﷻ.

أم زيد: والإباضية أيضا يقولون بالمجاز، ويفسرون به القرآن.

هند: أخبرني يا أبي ماذا يقصد بالمجاز؟

أبو زيد: المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مــع قرينة، فمثلا عندما نقول: رأيت أســد على فرس،

فإطلاق الأسد على الرجل الشجاع، فالأسد في الرجل مجاز، والعلاقة بينهما المشابهة في الشجاعة، وقولنا على فرس قرينة صارفة للفظ عن الحقيقة.

أم زيد: وكما أن المجاز يقع في اللغة العربية، فإنه يقع في القرآن الكريم أيضـــا: فكون الله في كل مـــكان معناه بالحفظ والقدرة، وكونه في الأشـــياء ومعها بمعنى العلم والإحاطة لها بالزيادة والنقصان، لا على الحلول والتمكن، والنفس بمعنى الذات، والعين بمعنى العلـــم والحفظ، والنور بمعنى الهداية، والدنو تعني سرعة الإجابة.

هند: بعد هذا الاستعراض الطويل لكلمة التأويل، تبين لي أن كلمة الاستواء سواء كانت في القرآن الكريم أو كلام العرب تدل على الاستعلاء، ومعنى الآية أن الله استولى على العرش، وملكه، وقدر عليه، وبما أن الله مستول على أكبر مخلوقاته وهو العرش، فهو من باب أولى مستول على ما هو دون العرش.

أبو زيد: الحمد لله يا هند، فقد أدركت معنى الآية الكريمة جعلكم الله من الذين يســـتمعون القول فيتبعون أحسنه، والآن كل إلى فراشه.

* * *

الليلة الخامسة عشرة

زيد: ما رأيك يا أبي أن تكون جلستنا اليوم على ضوء القمر الجميل؟ فالقمر اليوم أكثر إضاءة.

أبو زيد: كما تشاء يا زيد، فهذه الليلة من ليالي البيض.

زيد: لماذا يطلق عليها هذا الاسم؟ فكثيرا ما أسمع بصيام أيام البيض.

أبو زيد: لأن هذه الليالي الثلاث، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري يستدير فيها القمر، ويكتمل حتى يكون بدرا، ويكون الليل أكثر إضاءة وإشراقا.

هند: أراكما اشتغلتما بليالي البيض، ونسيتما حلقة اليوم.

أبو زيد: لم ننس يا بنيتي، ولكن أبهرنا هذا الوقت الرائع، وسيكون حديثنا اليوم ـ بإذن الله تعالى ـ عن نفي رؤية الله ﷻ،

وهو ما أجمع عليه الإباضية في الماضي والحاضر استنادا على أدلة كثيرة من القرآن والسنة، وإلى أدلة عقلية، ومن أقوى أدلتهم النقلية على نفي الرؤية هي الآية الكريمة ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

هند: لي في هذه الآية بعض استفسار يا أبي.

أبو زيد: تفضلي يا بنيتي ما هو استفسارك؟

هند: هل المقصود بالإدراك المضاف إلى الأبصار هنا الرؤية؟

أبو زيد: نعم، فمعنى قولك في لغة العرب أدركته ببصري أي رأيته ببصري ولا فرق إلا في اللفظ.

زيد: إذن الآية لا تفيد الإحاطة وإنما الرؤية.

هند: ولكن ربما تفيد أننا نرى الله ﷻ في الدنيا دون الآخرة، أو يراه المؤمنون دون الكفار؟

أبو زيد: لا لا يا بنيتي، فالآية تنفي إدراك الأبصار له تعالى مطلقا، وفي جميع الأوقات، والله ﷻ ذكر هذه الآية متمدحا بها، فنفي الإدراك مدح له تعالى، وكما تمدح بنفي السنة والنوم في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإذا قلنا بأننا نرى الله في الآخرة دون الدنيا، لكان

أيضا لا تأخذه سنة ولا نوم في الدنيا فقط دون الآخرة، وهذا هو عين المحال، وبنفي السنة والنوم عن الله في الدنيا والآخرة ثبت كذلك نفي إدراكه في الدنيا والآخرة، وبهذا يتبين أن مدائح الله ﷻ لا تزول دنيا وأخرى.

زيد: ألم تقرئي يا هند قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فهذه الآية تفيد جميع الأوقات والأعصار والأزمان، فلا تراه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يراه مؤمن ولا كافر.

أبو زيد: وهناك أيضا أدلة من السنة النبوية: فقد روى الإمام الربيع بن حبيب رحمه الله والبخاري ومسلم وبألفاظ صريحة استحالة رؤية الله ﷻ، فالسيدة عائشة التي تربت في بيت النبوة، وارتوت من معين الوحي الصافي، حينما سئلت هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله لقد قف شعري لما قلتم! من حدثكم أن محمدا رأى ربه ﷻ؟ من قال ذلك فقد كذب، ثم قرأت الآية: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، وجاء أيضا في مسند الإمام الربيع والشيخين في صحيحهما عن مسروق، كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة

منهن فقد أعظم الفريـــة: من زعم أن محمـــدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال: وكنت متكئا فجلست وقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ؟ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: إنما هو جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطا من الســـماء ســـادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض، فقالت: أو لم تســـمع أن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

هند: إذن، لماذا طلب النبي موســـى رؤية ربه عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ [الأعـراف: ١٤٣] ـ إذ لا يجـــوز أن يطلب نبي أمرا مستحيلا.

أبو زيد: قد أجاب الإباضية عن ذلك منذ زمن مبكر: فقد جاء عند الإمام الربيع بن حبيب «قال جابر بن زيد: سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فقال: ذلك على وجه الاعتذار لقومه؛ ليريهم الله آية من آياته، فييأسوا من رؤية الله» وهـــذا معناه أن النبي موســـى يعلم اســـتحالة رؤية

الله ﷻ، ولكن أراد أن يعلم قومه باستحالة رؤيته سبحانه، حينما طلبوا منه ذلك لقولهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

أم زيد: يا بنيتي، اقرئي الآية كلها وسوف تتوصلين إلى معناها، فالقرآن يفسر بعضه بعضا.

هند: سمعا وطاعة يا أمي،: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

زيد: وبطلبه هذا أراد النبي موسى عليه السلام أن يقيم الحجة على بني إسرائيل عندما لجوا عليه أن يريهم الله جهرة، وهذه آية من آيات الله ﷻ، حتى يصدقوا النبي موسى باستحالة رؤيته، وييأسوا من طلبهم، وقد أجابه الله ﷻ باستحالة الرؤية حين قال ﷻ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

أبو زيد: وقد فسر الإمام الربيع بن حبيب رحمه الله كلمة لن بمعنى اليأس عند النحويين، أي لن يراه أحد في الدنيا ولا الآخرة.

زيد: ولن هذه تفيد التأبيد وهذا معناه أننا لن نرى الله أبدا.

هند: لكن لماذا علق الله الرؤية باستقرار الجبل؟

أبو زيد: سأجيبك بما قاله الإباضية في هذه المسألة، قالوا: بأن استقرار الجبل مستحيل في علم الله تعالى، والمتعلق بالمستحيل مستحيل.

هند: إذن، علق الله ﷻ الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل في علمه تعالى محال، والمعلق على المحال محال.

أبو زيد: هذا هو يا هند، وقد سأل موسى عليه السلام الرؤية حتى تكون وسيلة من وسائل الإقناع لقومه، وهذا يعتبر أسلوبا من أساليب الدعوة التي يقوم بها، وكل هذا حتى يظهر لبني إسرائيل بأن الله تعالى لا يرى، فلذلك صار الجبل دكا، وحصل المراد فيما سألوا.

أم زيد: وهذا ما فسره الربيع بن حبيب رحمه الله في الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي فلما تجلى ببعض آياته فلم يحتملها الجبل صار دكا وخر موسى صعقا وتاب.

هند: ولماذا خر موسى صعقا؟ ومن ماذا تاب؟

أبو زيد: خر صعقا لأنه أحس باستعظام ما طلب من ربه ﷻ، وهذا ما بينه الربيع بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ في مسنده في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: حدثنا عمير ابن إسماعيل عن إبراهيم قال: حدثنا أبو صالح عن ابن عباس عن جويبر عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي من مسألتي أني أنظر إليك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بأنك لا يراك أحد.

هند: بقي هناك آية أشكل عليَّ أمرها.

أبو زيد: وما هذه الآية؟

هند: قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

أبو زيد: نكتفي اليوم بهذا وسنطرح هذا الموضوع غدا إن شاء الله؛ لأنها تحتاج شيئا من التأني والتوضيح، وغدا ستقام محاضرة في الجامع، وأرجو أن لا تفوتوها.

زيد: سمعا وطاعة يا أبي.

* * *

الليلة السادسة عشرة
جلسة علمية شائقة من جلسات
عقيدة المذهب الإباضي الأصيل

زيد: كانت المحاضرة ممتعة جدا جدا يا أمي.

أم زيد: عن ماذا كانت المحاضرة يا بني؟ فقد نسيت أن أسألكم عنها.

زيد: كانت في العقيدة، وأسهب المحاضر في الكلام عن نفي رؤية الله ﷻ يوم القيامة.

أبو زيد: سبحان الله! وكأن المحاضر يجيب ابنتي النجيبة على سؤالها الذي سألته بالأمس، فقد سألت عن الآية الكريمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، ولكن قبل أن أبين لك معنى الآية يا هند، على أن أخبرك بأننا تحدثنا في بعض أمسياتنا الماضية عن التأويل والمجاز في العربية الفصحى، ولا يفسر الآيات وفق هوى النفس حتى لا يميل عن الصواب إلى الخطأ، ولذلك تطرق الإباضية لهذه الآية منذ زمن مبكر، وقد أورد الإمام الربيع بن حبيب في القرن الثاني روايات متعددة عن

الصحابة والتابعين في تفسير هذه الآية، والإمام الربيع بن حبيب يقول إن النظر هو الانتظار مستدلا بقوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩].

زيد: واستعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وفي لغة العرب، وهذا هو حسان بن ثابت يقول:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتي بالفلاح

أبو زيد: وحتى يتبين لك معنى الآية جليا اقرئي الآيتين اللتين تلي هذه الآية، ثم لتدركي المعنى بكل وضوح.

هند: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٥].

أبو زيد: بعد قراءتك للآيات، تبين أن الناس يوم القيامة ينقسمون إلى فريقين: فريق وجوههم ناضرة أي وجوه مبتهجة مشرقة بما ترجوا من ثواب الله تعالى، وإلى ربها ناظرة أي منتظرة رحمة الله والدخول في جنته، وأما الفريق الآخر فوجوههم باسرة أي كالحة مكفهرة؛ لما تتوقعه من العذاب ما يقطع فقار ظهورها والعياذ بالله.

أم زيد: سبحان الله ما أبلغ كلام الله! وما أدق تناسقه في المبنى والمعنى! فلو فسر النظر بالرؤية لانقطع التناسب بين

الآيات، وتفكك رباطها، فنظارة هذه الوجوه مقابل ببسور تلك الوجوه، وانتظار هـذه لرحمة الله ودخول جنتـه مقابل بتوقع الفريق الآخر للعذاب.

أبو زيد: والنظر في هذه الآية أسـند إلـى الوجوه وهي ليست حاسة الرؤية وإنما حاسة الرؤية هو البصر.

زيد: وفي هذا الجانب بين لنا المحاضر عن الرؤية البصرية لدى المخلوق حيث قال: الرؤية البصرية المعهودة هي انطباع صورة المرئي في حدقة الرائي بقوة الذبذبات الضوئية الملتقطة للصورة، ولها عدة شروط: أولها سلامة البصر، ثانيا: أن يكون المرئي جائز الرؤية فيخرج بذلك ما كان ممتنعا كالروح والعقل والروائح والأصوات ولا بـد أن يكون البصر مقابلا للشـيء المرئي أو منعكسا في شيء مثل الشاشات أو المرآة، ولا يكون شيئا خفيا كالميكروبات التي تعجز الأبصار عن رؤيتها، وإدراك حقيقتها، وأن لا يكون بمنتهى اللطافة كالنسيم وما شابه ذلك أو العكس بأن يكون كثيفـا كالضباب، فهـو يحجب الرؤية، وحتى يستطيع الإنسـان أن يبصر عليه أن لا يلصق بعينيه شيئا وإلا حجبها عن الرؤية، وألا يكون الشـيء المرئي بعيدا جدا؛ لأن البصر لا يسـتطيع أن يدركه، والدليل على ذلك الأجرام

السماوية التي لا نستطيع رؤيتها بمجرد البصر، وألا يكون قريبا جدا لأن الالتصاق بالأبصـــار يحجبها عن الرؤيـــة، فالأجفان تحجب الأحداق من الرؤية لأنها ملتصقة بها.

أبو زيد: وهذه الشـــروط لا تعقل إلا في جسم أو عرض، وهي أقوى دليل على اســـتحالة رؤية الله ﷻ دنيا وأخرى؛ لأنه ليس بجسم ولا عرض، وإذا قلنا برؤية الله فسوف نصفه بالتحيز في الأمكنة، وقد ذكرنا سابقا بأن الله مخالف لمخلوقاته.

هند: ما شاء الله، هذه أدلة مقنعة استند إليها الإباضية من العقل والنقل تبين اســـتحالة رؤيـــة الله تعالى دنيـــا وأخرى، وأشكركم يا أبي على إجابة كل تساؤلاتي بصدر رحب.

أبو زيد: هذا واجب علينا يا ابنتي، والحق يتبين بالحجة والدليل، وإذا أردتم التوســـع أكثر في هذا الموضوع فعليكم بالرجوع إلى كتب المذهب الإباضي العقائدية، ففيها ما يروي الظمآن من الأدلة المقنعة على نفي الرؤية.

* * *

الليلة السابعة عشرة

أبو زيد: أين هند وزيد يا أم زيد؟

أم زيد: في غرفهم يحفظون شيئا من القرآن.

أبو زيد: وهل أكمل زيد حفظ الجزء التاسع عشر؟

أم زيد: نعم، وهو الآن في الجزء العشـــرين، أما هند فلا زالت في الجزء العاشر، ها هما قادمان.

زيد وهند: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبو زيد وأم زيد: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أبو زيد: بـــارك الله فيكم يا أبنائي، فأنتـــم مهتمون بحفظ كتاب الله، فهو نور في الصدور وفـــي حفظه خير عظيم، وفيه شفاء وبركة.

زيد: هناك سؤال لدي يختص بالقرآن الكريم.

أبو زيد: ما هو يا زيد؟

زيد: عند قراءة أختي هند هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أردت أن أعرف هل كلام الله صفة ذاتية أم صفة فعلية؟

أبو زيد: بما أن جلستنا تختص بالمذهب الإباضي سأذكر لك ما يقوله الإباضية في هذا الجانب: فهم يقسمون كلام الله إلى قسمين: الأول أنه صفة ذاتية كالعلم والقدرة، والمراد نفي الخرس عنه تعالى، فمعنى كونه متكلما أنه ليس بأخرس، والقسم الثاني: أنه صفة فعلية بمعنى أن الله خالق الكلام؛ لأن الكلام يعد شيئا من الأشياء والله خالق كل شيء، وهذا معناه أن القرآن مخلوق.

زيد: وما الدليل على أن القرآن مخلوق؟

أبو زيد: هذه المسألة من المسائل المهمة التي كثر فيها نقاش العلماء، لأنها قضية لم تكن موجودة لا عند الصحابة ولا عند التابعين، وشيوخ الإباضية الأوائل مثل جابر بن زيد وأبي عبيدة والربيع بن حبيب لم يتطرقوا لهذا الأمر، ولكن الذي أثار هذه القضية هو يهودي عاش في البصرة، وأظهر إسلامه ليبث الفتنة بين المسلمين، ويدعى أبا شاكر الديصاني: وقال بأن القرآن قديم ليس بمخلوق.

زيد: وهل تقبل المسلمون هذه المقولة؟

أبو زيد: قد قبل هذا الكلام قوم ورفضه قوم، والذي نقل هذا إلى الإباضية هو عبدالله بن يزيد الفزاري الذي عاش في الكوفة، وعندما بلغت القضية علماء عُمان عقدوا عدة جلسات، واتفقوا فيها على أن الله خالق كل شيء وما سوى الله مخلوق، وأن القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله على محمد ﷺ مستدلين بذلك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والأدلة العقلية.

زيد: هؤلاء اليهود ـ دائما ـ هم سبب تفرقة المسلمين، ولو احتكم المسلمون إلى كتاب الله العزيز لوجدوا ما يرشدهم إلى طريق الحق، ويعيدهم إلى حظيرة الصواب.

أبو زيد: حقا، فالقرآن جاء بأدلة كثيرة تدل على أن القرآن مخلوق، فمثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

هند: وهل معنى جعلناه خلقناه؟

أبو زيد: نعم يا بنيتي، فالله ﷻ وصف القرآن بما وصف به سائر خلقه حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣١] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

أم زيد: ومن الأدلة التي يستند إليها الإباضية على أن القرآن مخلوق أيضا قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]. وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] فإذا كان القرآن محدثا فمن أحدثه غير الله تعالى.

أبو زيد: وهناك آية أخرى تبين أن القرآن مخلوق، وهي قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]. والقرآن شيء يدخل تحت هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] فليس هناك ما يدل على استثناء القرآن.

زيد: بعد ما بينتم لنا الأدلة النقلية الواضحة الصريحة على أن القرآن مخلوق، ما هي الأدلة العقلية التي يعتمد عليها الإباضية في هذا الجانب؟

أبو زيد: سأختصر لكم بعضا من أدلتهم العقلية، أولا: أن القرآن يتكون من حروف وحركات وأصوات مقطعة، وآيات محكمة ومتشابهة، وناسخ ومنسوخ، وأجزاء وأحزاب، وهذا من خصائص المخلوق، وثانيا: أن حروف القرآن نفس حروف كلام العرب، وإذا قلنا بأن كلام العرب مخلوق فالقرآن أيضا

مخلوق، ثالثـا: أن القرآن مسـموع بالآذان ومتلو بالألسـن ومكتوب بالأقـلام ومسـطور بالألواح، وهـذه الصفات من صفات المخلوقيـن، رابعا: أن كل حرف مـن حروف القرآن الكريم يحتـاج إلى حرف غيـره حتى تتألف منـه الكلمات والجمل، والاحتياج صفة المخلـوق، وهناك أدلة أخرى تدل على أن القرآن مخلوق، ولكني أرى النعاس تسلل إلى أعينكم ونكتفي بهذا اليوم.

زيد: لي سـؤال أخير يا أبي، هل هناك أحد غير الإباضية يقول بخلق القرآن؟

أبو زيد: أجل، فالشيعة الإمامية والزيدية والمعتزلة يقولون بخلق القرآن.

زيد: جزاكم الله خيرا على هـذا العطاء المتواصل، وجعل ذلك في ميزان حسناتكم.

* * *

الليلة الثامنة عشرة

كالعادة بعد صلاة التراويح تجتمع الأسرة في غرفة الجلوس ولكن هناك ما يكدر صفو وجه زيد، يا ترى ما هو؟

أبو زيد: مالي أراك حزينا يا ولدي؟

زيد: اليوم وقع صديقي من سلم المدرسة، فكسرت قدمه، ليته لم يذهب إلى ذلك المكان، فأنا حزين جدا لأجله.

أبو زيد: هذا يا بني قضاء الله وقدره، وقد كتب له الوقوع في ذلك المكان في اللوح المحفوظ.

زيد: وما مدى أهمية الإيمان بذلك يا أبي؟

أبو زيد: القضاء والقدر سادس ركن من أركان الإيمان، ويجب علينا أن نؤمن بأن كل شيء بقضاء الله وقدره.

زيد: وما الفرق بين القضاء والقدر؟

أبو زيد: القضاء هو إثبات الأشـياء في اللوح المحفوظ إجمالا، والقدر هو إيجادها في المواد تفصيلا، فالله ﷻ عليم بكل ما يحـدث في هذا الكـون، وقد أثبت ذلـك في اللوح المحفوظ، ولا بد من وقوع ما أثبته؛ إذ يستحيل أن يقع شيء بخلاف ما علمـه تعالى، كما أنه سـبحانه هـو الخالق لكل ما يجري في هذا الكون، إذ لا خالق سواه.

أم زيد: والمؤمـن عليه أن يؤمن بأن كل شـيء يحدث بقضـاء الله وقـدره كان خيرا أوشـرا، فالرسـول ﷺ يقول لعبادة بن الصامت: «لن تجد ولـن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشـره من الله تعالى، قال: يا رسـول الله، وكيف لي أن أعلم خير القدر وشره، قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن مت على غير ذلك دخلت النار».

هند: لكن هل معنى ذلك أن الذي يصرفنا إلى فعل الخير والشر هو الله تعالى؟

أبو زيد: ليس الأمر كذلـك يا بنيتي، فأفعالنـا وأعمالنا وأقوالنا نحن من نكتسبها، والله تعالى هو خالقها حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] .

زيد: هلا توضح لنا أكثر يا أبي.

أبو زيد: سأوضح لك يا بني، وهو أن الإنسان فعله مخلوق لله ﷻ، ومكتسب من قبل العبد، فتتعلق بالفعل قدرتان وإرادتان: قدرة الله الخالقة، وقدرة العبد المكتسبة، وإرادته المكتسبة، وهناك نصوص في القرآن كثيرة دالة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ فالله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، وهما غير مكتسبين للعبد، وهو أيضا خالق للضحك والخالق للبكاء اللذين هما مكتسبان للعبد، فجميع هذه الأشياء مخلوقة لله ﷻ، ولكن للعبد قوة على الاكتساب، ويدرك العبد أن هناك إرادة تدفعه إلى فعل ما يشاء أو ترك ما لا يشاء، هذه الإرادة تصدر عن أعماق نفسه، فعندما يريد العبد اكتساب الخير يهيؤه الله له، وعندما يريد أيضا اكتساب الشر يهيؤه الله له، فهذه التهيئة هي الخلق.

زيد: وبهذا ندرك أن الله هو خالق الخير والشر، وقد بين لنا طريق الخير وطريق الشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونحن نختار ما نشاء بإرادتنا الحرة، ولا يجوز أن نقول: أن لا

فعل ولا إرادة للإنســان، وإنما يصدر منه من خير وشر فهو كالأمور الاضطرارية.

أبو زيد: أحســنت يا زيد، وكذلك لا يجوز أن نقول: إن الإنسان هو من يستقل بإيجاد فعله استقلالا تاما من غير إرادة ربانية.

هند: ونفهم من هذا أن الكسب للفعل لا يكون بإكراه من الله تعالى، وإنما اختيار الإنسان إذا شــاء فعل الخير وإذا شاء فعل الشر.

أبو زيد: والفعل والترك منا إنما هو لأجل الأمر والنهي، فهما عبادة منا له ﷻ، ومع ذلــك فنحن مفوضون الأمر إليه، ومسلمون لحكمه، وراضون بقضائه، ومتوكلون عليه، فإن شاء أن يرحمنا فذلــك من فضله علينا، وإن شــاء أن يعذبنا فذلك بعدله فينا.

أم زيد: وينبغــي يا أبنائي أن تعرفوا شــيئا مهما في هذه القضية، وهو أن القدر بمعنى الخلق، فالله تعالى يقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ حيث نقــول: قدر الله وخلــق الله، أما المقدور فهو فعل الإنسان وكسبه، والله سبحانه لا يعذب على

القدر، ولكن يعذب على المقدور، وهو ما يكتسبه العباد، إن كان خيرا أثيبوا عليه وإن كان شرا عوقبوا عليه.

أبو زيد: وقد حكى بعض الإباضية أن واصل بن عطاء المعتزلي صاحب عمرو بن عبيد، كان يتمنى لقاء أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ويقول: لو قطعته قطعت الإباضية، قال: فبينما هو في المسجد الحرام ومعه أصحابه إذ أقبل أبو عبيدة ومعه أصحابه، فقيل لواصل: هذا أبو عبيدة في الطواف قال: فقام إليه واصل فلقيه وقال: أنت أبو عبيدة؟ قال: نعم قال: أنت الذي بلغني أنك تقول: «إن الله يعذب على القدر»، فقال أبو عبيدة: «ما هكذا قلت: ولكن قلت: إن الله يعذب على المقدور»، فقال أبو عبيدة: وأنت واصل بن عطاء؟ قال: نعم قال: أنت الذي بلغني عنك تقول: إن الله يعصى بالاستكراه؟ قال: فنكس واصل رأسه، فلم يجب بشيء، ومضى أبو عبيدة، وأقبل أصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون: كنت تتمنى لقاء أبي عبيدة فسألته فخرج، وسألك فلم تجب!؟ فقال واصل: ويحكم، بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وأنا قائم، فلم أقعد ولم أبرح مكاني.

أم زيد: ما شاء الله، دائما صاحب الحق حجته معه، ما رأيكم أن نكتفي اليوم حتى ننام باكرا، فهند اليوم لم تستيقظ للسحور، وفاتها تطبيق سنة رسول الله ﷺ.

أبو زيد: كما فاتتها ركعتا السحر، والدعاء في هذا الوقت المبارك الذي ينادي فيــه الله تعالى فيقول: (هل من ســائل؟ فأعطيه، هل من داع؟ فأجيبه، هل من مستغفر؟ فأغفر له).

هند: أنا حزينة لذلك، وما هو إلا الشيطان الذي سول لي حتى لا أنال أجر هذا الوقت.

* * *

الليلة التاسعة عشرة

زيد: اليــوم قرأت يــا أبي بعض المســائل التــي تتعلق بالعقيدة.

أبو زيد: ماذا قرأت يا بني؟

زيد: مسألة خلود أهل الكبائر في النار، ومسألة الشفاعة.

أم زيد: ما شــاء الله، أراك بدأت بنفسك تبحث عن طريق الحق دون أن تسأل.

زيد: أتمنى ذلــك، وأســال الله أن يوفقني إلــى الطريق المســتقيم، فســبحان الله يا أمي عندما أقرأ كتب الإباضية في مســائل العقيدة أجد الأدلة القاطعة ســواء من القرآن أم السنة التي تجعل القارئ لا يدخله شيء من الشك أو الريبة.

أبو زيد: بما أنك قرأت عن الخلود في النار، فماذا يقول الإباضية في المصر على الكبيرة؟

زيد: يقولون بـــأن أهل الكبائر مخلدون فـــي النار أبدا، مســـتدلين بآيات كثيرة من القرآن الكريـــم منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] وهناك أيضا أحاديث كثيرة تدل على خلود أهل الكبائـــر في النار كقول رســـول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم ســـياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونســـاء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلـــن الجنة، ولا يجـــدن ريحها، وإن ريحهـــا لتوجد من مسيرة كذا وكذا» وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر».

هند: ولكن هذه الأحاديث لم تصرح هنا بالخلود في النار.

أبو زيد: بما أنها تنص أن هؤلاء لا يدخلون الجنة فذلك يدل أنهم في النار والعياذ بالله.

هند: وإذا كان مرتكب الكبيرة المصر عليها له شـــيء من الحســـنات وأعمال الخير، فهل تحبط هذه الأعمال ولا يثاب عليها؟

زيد: نعم تحبط يا هند، فهو من أحبط عمله بنفسه لإصراره على الكبيرة، فالله ﷻ لا يتقبل إلا من المتقين، وبما أنه مصر على الكبائر فهو ليس بمتق؛ لذلك لا يتقبل الله منه حسناته.

أم زيد: الله أكبر هذا عدل من الله، فالله سبحانه لم يتعبد العباد إلا بعد أن بين لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذا حجة عليهم يوم القيامة.

هند: لكن ألا يقتصر هذا التخليد على المشركين فقط، أما الموحدون فسوف يعذبون بقدر أعمالهم ثم يخرجون منها.

زيد في تضجر وغضب: أوه أنت كثيرة الأسئلة يا هند.

أبو زيد: لا تغضب يا زيد، فهي لا زالت صافية الذهن، ومن حقها أن تسأل حتى يتبين لها الصواب من الخطأ، وعليك أن تجيب عن كل تساؤلاتها بما أتاك الله من علم، وبالحجة والدليل البين، وبصدر رحب.

زيد: أنا آسف يا أختي، ولكن أغضبني في سؤالك حيث إن اليهود يعتقدون أنهم يفعلون المنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويظنون أنهم سيعذبون قليلا ثم يخرجون إلى الجنة، ظنا منهم بأنهم ينتمون إلى دين موسى

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

أبو زيد: وهذا كله من ضمن ما يتقولونه على الله، ولذلك ترى الله ﷻ رد عليهم وعلى معتقدهم الفاسد حين قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١]، وهذا تحذير أيضا من الله ﷻ للمسلمين من أن يغتروا بدينهم بمثل هذا الاعتقاد الفاسد، ويظنون بأنهم يعذبون في النار بقدر أعمالهم السيئة، ثم يخرجون ويدخلون الجنة.

أم زيد: وإذا اعتقد الإنسان هذا الاعتقاد فإن ذلك يجعله يفعل ما يشاء من المنكرات والفواحش، معتقدا أنه سينسى ما أصابه من عذاب جهنم عند دخوله الجنة والتنعم فيها، وهذا مما يجره على فعل المنكرات، وتصبح أوامر الله ونواهيه لا قيمة لها؛ لأن المجرم والمحسن سيكونان على السواء.

أبو زيد: وهذا ليس من الحق في شيء؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

هند: والذي يتبين لنا بعد هذا أن الناس يوم القيامة فريقان لا ثالث لهما: إما مؤمن سعيد لا يشقى أبدا خالدا مخلدا في الجنة، أو كافر شقي لا يسعد أبدا خالدا مخلدا في نار جهنم، ولا تجتمع السعادة والشقاوة لشخص واحد أبدا في الآخرة.

أبو زيد: ها هي هند قد أدركت الشيء الذي قد غفلت عنه، فبالسؤال والمناقشة والإجابة الشافية الكافية يتبين الشيء المجهول. بارك الله فيكم جميعا، وما بقي إلا أن ندعو الله ﷻ أن يهدينا إلى طريق الحق والرشاد، ويرزقنا اتباعه ويبعدنا عن طريق الباطل ويرزقنا اجتنابه، حتى نكون من أهل الجنة خالدين مخلدين فيها.

الجميع: آمين.

* * *

الليلة العشرون

زيد: اليوم بعد قراءتي للقرآن في المسجد أخذ فكري يجول في عالم مهيب، ومشهد عظيم في يوم القيامة يوم الحساب والعقاب، ومصير كل واحد منا، وتذكرت شفاعة سيدنا محمد ﷺ وهو يشفع إلى الناس وهم سعيدون بشفاعته.

أبو زيد: بارك الله فيك يا زيد، فالتفكر من العبادات التي أوجبها الله علينا، وخاصة التفكر بيوم القيامة، فهو مما يجعل العبد على استعداد دائم لهذا اليوم العظيم بفعل الطاعات، والابتعاد عن المعاصي والآثام.

هند: ما معنى كلمة الشفاعة يا أبي؟

أبو زيد: قد عرفها الإمام السالمي رحمه الله في كتابه مشارق أنوار العقول حيث قال: هي في اللغة الوسيلة والطلب، وعرفا سؤال الخير من للغير، وشرعا طلب تعجيل دخول الجنة أو زيادة فيها من الرب ﷻ لعباده المؤمنين، فتكون للأنبياء

وغيرهم، ويختص نبينا ﷺ منها بخصلة هي تقدمه إليها قبل كل شافع، فلا يفتح بابها إلا له، ثم من بعده يشفع من شاء الله أن يشفع قيل: وهو المقام المحمود الذي في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩] أي يحمدك فيه الأولون والآخرون حيث لم يجدوا قبلك شافعا.

هند: وهل نبينا محمد ﷺ سيشفع لجميع الخلائق في ذلك اليوم؟

أبو زيد: شفاعة نبينا محمد ﷺ لا تكون إلا للمؤمنين المطيعين لله فقط،

أما أهل الكبائر والمشركون غير التائبين فلا شفاعة لهم، فالشفاعة لا تكون للمذنبين العاصين.

هند: وما الدليل على أن أهل الكبائر ليس لهم شفاعة؟

أبو زيد: هناك أدلة من القرآن والسنة تدل على: ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] والرسول ﷺ يقول: «ليست شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، والإمام جابر بن زيد رضي الله عنه كان يحلف بأن ليس لأهل الكبائر من شفاعة؛ لأن الله تعالى أوعد أهل الكبائر في كتابه بالعقاب الشديد.

زيد: المؤمن يدخل الجنة بعفو الله وطاعته له تعالى، فما حاجته إلى الشفاعة؟

أبو زيد: حاجته إليها كبيرة في ذلك اليوم العظيم، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فالشفاعة زيادة لهم في الثواب، وتعجيل الحساب لهم، ورفع منازلهم في الجنة.

زيد: الشفاعة ـ إذن ـ لها ارتباط وثيق بالخلود في النار، فإذا كان لأهل الكبائر شفاعة فهذا مما يشجعهم على ارتكاب المحرمات، وفعل المعاصي بلا مبالاة، ظنا منهم وأملا بأن شفاعة سيدنا محمد ﷺ ستنقذهم من عذاب جهنم، وتدخلهم جنة النعيم.

أم زيد: وهذا مما ينافي عقائد الإسلام والدين القويم، فالرسول ﷺ لم يفرق بين الشرك والكبائر، فقد قال ﷺ: «اجتنبوا الكبائر السبع الموبقات تنجحوا: الشرك بالله، والقتل، والسحر، وأكل الربا، وأكل أموال الناس ظلما، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين».

هند: وهذا معناه أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين المطعين لله تعالى في جميع أقوالهم وأفعالهم.

أبو زيد: نعم يا بنيتي، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

زيد: أسألك يا أبي عن موضوع آخر، فأنت اليوم بعد خروجنا من المسجد سمعتك تقول لرجل: تقبل الله منك وجعل ذلك في ميزان حسناتك، فهل الميزان الذي يوزن به أعمال العبد مثل الميزان الحقيقي له كفتان وعمود؟

أبو زيد: بارك الله فيك يا بني، هكذا ينبغي أن يكون طالب العلم، سؤولا شغوفا للمعرفة نافيا للجهل عن نفسه، الميزان هو كناية عن فرز الأعمال، وتمييز خيرها وشرها، وبيان مقبولها ومردودها، فإن الله تعالى هو العليم بكل شيء، ولم يكن في حاجة إلى ميزان حقيقي لبيان الصالحات والسيئات، وإنما يعرض على عباده يوم القيامة ما قدموا وأخروا، وما أخلصوا فيه لله، وما أرادوا به غير وجهه، فتقوم الحجة على المسيء بإساءته، وينعم المحسن بنعمة القبول من الله.

أم زيد: والله ﷻ قادر على كل شيء، فليس له حاجة إلى مثل ذلك.

أبو زيد: وهذا معروف في لغة العرب، فالرجل يقول لصاحبه زن مجلسك أو زن كلامك، فالمراد بكلامهم هذا هو التأمل والنظر فيه، وقد أخبر المولى أن المراد بالوزن الحق والقسط فقال: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨] وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

زيد: إذن ليس المراد بالوزن والموازين الميزان الحقيقي، وإنما هو القسط والحق أي ميزان معنوي.

أبو زيد: بارك الله فيك يا بني، نكتفي بهذا، وها هي العشر الأواخر من هذا الشهر الفضيل المبارك قد أقبلت علينا، فعلينا أن نستغلهن في الاعتكاف، عسى أن يمن الله علينا بقيام ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ونتمنى أن نكمل هذه الجلسات في أيام لاحقه بإذن الله وتوفيقه.

هند: نتمنى ذلك يا أبي، فقد تعلمت من خلال هذه الجلسات المباركات الشيء الكثير، وقد تبين لي أن الإباضية لم يتسمدوا عقيدتهم من هوى النفس أو من نزغات الشيطان،

وإنما استمدوها من كتاب الله الخالد ومن سنة خير خلقه محمد ﷺ، كما أنهم إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم جعلوا المحكم الأول والأخير كتاب الله وسنة نبيه، فطوبى لمن كان هذا مسلكه، ومن على طريق الحق بنى مذهبه، إنهم أهل الحق والاستقامة.

* * *

المراجع

١ ـ لقاءات سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان في الفكر والدعوة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، إعداد فهد بن علي بن هاشل السعدي.

٢ ـ وسقط القناع، لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي سلطنة عُمان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٣ ـ إتحاف الأعيان في تأريخ بعض علماء عُمان، الجزء الأول، تأليف الشيخ سيف بن حمود بن حامد البطاشي، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٤ ـ روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن، للإمام نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٥ ـ مختصر تأريخ الإباضية، تأليف صاحب الفضيلة العلامة الشيخ أبي ربيع سليمان الباروني، الطبعة الرابعة مزيدة ومنقحة.

٦ ـ الكشف والبيان، تأليف الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن سعيد الأزدي القلهاتي، الجزء الأول، تحقيق وشرح الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف.

٧ ـ دراسات إسلامية في الأصول الإباضية، تأليف بكير بن سعيد أعوشت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ.

٨ ـ عُمان قبل وبعد الإسلام، المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عامر بن علي بن عمير المرهوبي في مهرجان العالم الإسلامي بلندن، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، وزارة التراث القومي والثقافة «تراثنا» العدد ١٢.

٩ ـ الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، تأليف الدكتور عوض محمد خليفات، الجامعة الأردنية، الطبعة الثانية، وزارة التراث القومي والثقافة «تراثنا» العدد ٢٧.

١٠ ـ إزالة الاعتراض عن محقي آل إباض، العلامة محمد بن يوسف أطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة «تراثنا» العدد ٢٩.

١١ ـ عُمان والحركة الإباضية، تأليف محمد قرقش، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٢ ـ الأدلة المرضية في دحض ما نسب إلى الإباضية، تأليف بدر بن هلال بن حمود اليحمدي.

١٣ ـ حملة العلم إلى المغرب ودورهم في الدعوة الإسلامية، إعداد سيف بن أحمد البوسعيدي، إصدار قسم البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٤ ـ الإباضية مذهب إسلامي معتدل، تأليف الشيخ علي يحيى معمر.

١٥ ـ إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء، تأليف الشيخ الجليل الفقيه سالم بن حمود بن شامس السيابي السمائلي، تحقيق الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف.

١٦ ـ العقود الفضية في أصول الإباضية، تأليف الشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٧ ـ معجم النساء العُمانيات، سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٨ ـ إرشاد الساري في نفي رؤية الباري، تأليف فضيلة الشيخ حمود بن عبدالله الراشدي.

١٩ ـ جابر بن زيد حياة من أجل العلم، تأليف الدكتور أحمد درويش.

٢٠ ـ الوجيز تأريخ المغرب والأندلس، تأليف الدكتور صالح محمد فياض أبو دياك، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٢١ ـ الأصول العقدية للناشـــئة المحمدية، تأليف الدكتور ناصر.

٢٢ ـ البعد الحضاري للعقيدة الإباضيـــة، تأليف الدكتور فرحات الجعبيري.

٢٣ ـ هذه مبادئنا الرد على كتاب الإباضية عقيدة ومذهبا، للدكتور صابر طعيمه، اشترك في إعداده أحمد مهني مصلح ـ محمد جمعة الأندلسي ـ عاشور يوسف كسكاس ـ مهني عمر التيواجني.

٢٤ ـ كتاب النور، تأليف العالـــم الفقيه عثمان بن عبد الله الأصم.

٢٥ ـ مشارق أنوار العقول، تأليف نور الدين الإمام أبي محمد عبد الله بن حميد السالمي، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٦ ـ شرح منظومة غاية المراد في نظم الاعتقاد، للإمام نور الدين السالمي، لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة صفر، ١٤٢٤هـ ـ ابريل ٢٠٠٣م.

٢٧ ـ الحق الدامغ، لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي.

٢٨ ـ البديل الإباضي وفن الممكن دراسة تحليلية لنظام العزابة لحي وادي ميزاب بالجزائر، تأليف الدكتور علي القريشي كاتب عراقي أستاذ مشارك بكلية التربية بصحار الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٩ ـ الرائع في التاريخ العُماني، الجزء الأول، تأليف سالم البوسعيدي.

٣٠ ـ بهجة الأنوار ـ شرح أنوار العقول في التوحيد، تأليف الشيخ العلامة المحقق الإمام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، الطبعة الرابعة.

* * *

الفهرس

- المقدمة ٥
- في يوم من الأيام اجتمعت أسرة أبي زيد يتجاذبون الأحاديث الشيقة في وقت السمر ٩
- الليلة الأولى ١٠
- الليلة الثانية ١٤
- الليلة الثالثة ٢٠
- الليلة الرابعة ٢٨
- الليلة الخامسة ٣٤
- الليلة السادسة ٣٩
- الليلة السابعة ٤٥
- الليلة الثامنة ٥٠
- الليلة التاسعة ٥٥

• الليلة العاشرة ٥٩
• الليلة الحادية عشرة ٦٣
• الليلة الثانية عشرة ٦٩
• الليلة الثالثة عشرة ٧٥
• الليلة الرابعة عشرة ٨٣
• الليلة الخامسة عشرة ٨٨
• الليلة السادسة عشرة ٩٥
• الليلة السابعة عشرة ٩٩
• الليلة الثامنة عشرة ١٠٤
• الليلة التاسعة عشرة ١١٠
• الليلة العشرون ١١٥
• المراجع ١٢١

* * *